

روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
72
أسطورة الطوطم
د. أحمد خالد توفيق
Looloo
www.dvd4arab.com

المقدمة

يبدو أن وقتًا لا بأس به قد مر منذ حكينا قصة الظلال .. إن هذه الغرفة خالية منذ زمن ، وقد بدأ البرد يتسرب لها .. البرد وذلك الشىء الذى لا يمكن وصفه ، والذى يميز الأماكن المهجورة منذ زمن ..

الأماكن لها شخصية ولها لغة خاصة .. هذه أشياء نشعر بها لكن لا نتعمق فيها .. من يتعمق أكثر من اللازم فى هذه الأمور يصر شاعرًا أو يجن ..

نعم .. الغرفة خالية وإن كانت لها لغة خاصة بها .. غرفة ثرثارة لو أردنا الدقة ، والأكثر سوءًا هو أننى لا أحب صوت الغرف .. إنه مزعج مكتوم رتيب يثير الغيظ ..

لهذا قررت أن أحطم هذا الصمت المشوب بهمس الغرف ، وأحكى لكم قصة جديدة ..

ـ « لِمَ لا تحكى لهم قصة التابوت الذى ...... ؟ »

من قال هذا ؟.. غالبًا هى الغرفة .. لا يا سيدتى الكريمة .. لن تكون هناك توابيت اليوم على ما أعتقد فقد حكينا عنها الكثير ..

ـ « وماذا عن مصاص الدماء الذى ....؟ »

لا .. لن يكون هناك مصاصو دماء .. حكينا عنهم الكثير ..

ـ « هناك مذءوب فى مدرسة البنات .. فتاة تتحول لذئب عندما .. »

تتحول لذئب عندما يدق الجرس .. أذكر هذه القصة لكن أحدًا لن يصدق أننى لم أستوحها من فيلم (كنت مذءوبًا مراهقًا) .. ثم إن المذءوبين الذين يتحولون صاروا أكثر من اللازم .. فكرى فى شىء آخر يا سيدتى الكريمة ..

كانت هناك قصة جيدة مع الكاهن الأخير (هن تشو كان) ، لكن هناك تفاصيل لا أذكرها ، ويجب أن أعيد البحث فى أوراقى .. الأوراق التى لا أذكر أين وضعتها طبعًا .. يبدو أننى مضطر لتأجيل هذه القصة اليوم ..

لحظة ..

قصة الطوطم لم أحكها بعد ، ويبدو أننى وعدت بهذا .. إنها جيدة وستروق لواحد أو اثنين منكم ، مما يجعلها مغامرة مضمونة النجاح ..

هناك طوطم .. لو كنت قد تذكرت كتاب فرويد الشهير (الطوطم والتابوو Totem and Taboo) فلا يوجد (تابوو) هنا .. دعك من أنه كتاب معقد فعلاً ولابد من قراءته عدة مرات .. ما نحن بصدده أقل تعقيدًا بمراحل ..

نعم .. الليلة سأحكى قصة الطوطم ..

أولاً سوف أعد لنفسى بعض الشاى .. أريد أن أسهر لأنها ستكون قصة طويلة ..

ثانيًا يجب أن أبتلع أقراص علاج الضغط ـ الربو ـ تضخم البروستاتا ـ قرحة المعدة ـ ارتفاع ضغط العين ... إلخ ..

ثالثًا سوف أغلق الغرفة للتأكد من عدم حدوث مفاجآت غير سارة .. لا أحتاج لخيال كى أرى مشهد المتسلل الليلى إلى شقتى ليجد عجوزًا وحيدًا جالسًا أمام مكتبه وظهره للباب .. الأباجورة مضاءة كبقعة وحيدة فى الظلام .. إغراء لا يمكن أن يقاومه .. إنه يقترب ويقترب .. ثم ...

لا داعى لهذا .. سوف أغلق الباب فأريح وأستريح ...

كل شىء جاهز ..

هل أحضرتم آذانكم معكم ؟.. جميل .. جميل ...

فلنبدأ ..

طوطم Totem : حيوان أو نبات أو شيء طبيعي يلعب بين بعض القبائل دور الرمز للقبيلة أو العشيرة ، وأحيانًا يُقدَّس باعتباره المؤسس أو الجد الأكبر أو الحامي .

ـ مجموعة اجتماعية ترتبط بهذا الشيء .

ـ رمز مقدس أو شعار .

[قاموس التراث الأمريكي]

تاجر الجلود

- 1 -

العـام 1890 ...

بالنسبة لـ (جيريمياه إلوود) لم تكن قبيلة (أوجيبوا) الهنديـة تمثل أكثر من بائع للجلود ...

إنهم قـوم شديدو المراس ولا يسـهل التفاهم معهم ، دعك من أنهم استطاعوا قهر كل القبائل الهنديـة الأخرى فـى المنطقـة .. إنهم من استطاع أن يسحق (السيوكس Sioux) وهـذا ليـس سهلاً .. هكذا غادر السيوكس منطقة أعالى المسيسبى .

فى تلك العصر - منذ مائة عام ونيف - كانت ولاية (نورث داكوتـا) تعج بالهنود الحمر ، قبل أن ينخفض عددهم ليمثلوا 5٪ فقط من هنود الولايات المتحدة ..

كان يركب النهر فى قاربـه المدبب الذى يطلقون عليـه اسم canoe ، ويجدف عبر المياه الثـائرة وهو يدندن لنفسـه ، حتى يبلغ جزيرة السلحفاة ..

إن (جريمياه) نموذج ممتـاز للرجل الأبيض الذى غزا هذه الأصقاع (عندما كان الرجال رجالاً). هناك ينزل إلى الشط .. ولـم يكن يحاول أن يتوغل كثيرًا .. فقط ينصب خيمته ثم يشعل النار .. ينتظر ...

ذات مرة جاء دب أشهب عملاق يركض ففر (جيريمياه) إلى الأشجار وتسلقها ، وراح فى حسرة يراقب الدب وهو يمـزق الخيمة إلى أشلاء وهو يزأر. لابد أن الأمر استغرق ساعة قبل أن يمل الدب هذه اللعبة ويرحل .

لكن فـى الأحـوال العاديـة لا يحـدث شـىء .. إنـه يشـعل النـار ويسخن طعامه المكون كالعادة من الفاصوليا والقهوة ، ثم يعلق المرآة على شجرة ويحلق لحيته بالموسى ..

هناك فرصة 90٪ أنه سيراهم قادمين منعكسين فى المرآة فى هذه اللحظة بالذات. دائمًا يأتون فى هذه اللحظـة لسبب لا يفهمـه .. يرى خيولهم تتقدم فى صف واحد .. يستدير وهو يجفف الصابون عن ذقنه ويتقدم فى حذر ..

إنهم خمسة من هنود (أوجيبوا) الأشداء مكفهرى الوجـوه .. لا يمكنك أن تشعل عود ثقـاب فـى أرض الهنـود مـن دون أن تجدهم حولك بعد دقيقة .

يقف أمام الرجال ثابتًا لبضع دقائق ، ثم يرفع يده اليمنى محييًا ..

هو يعرف الأول .. إنه (الثور الغاضب) .. رجل صموت قوى البنيان يبدو أنه عالى المكانة عندهم لأن الآخرين يطيعونه . لكن (جيريمياه) لا يجسر على الدنو من أرضهم .. لا أحد يجسر على الدنو من أرض من هزموا السيوكس .. فقط تتم الصفقات هنا ..

يتجه إلى القارب ويخرج ما جاء به من زجاجات خمر ومن تبغ ممتاز .. ثم يعود بهذه الأشياء ليلقى بها أمام حوافر خيول الهنود ، هنا يترجل أحد الرجال ليلقى بحزمة من الجلود على الأرض .. هكذا تتم الصفقة والمقايضة .. يرفع (الثور الغاضب) يده مودعًا دون أن يبدو أى نوع من الود على وجهه ، وتستدير الخيول مبتعدة ، ويعرف (جيريمياه) أن الهدنة انتهت وأن عليه أن يحمل الجلود ويرحل بأسرع ما يمكن ..

هكذا يمضى إيقاع حياته وهو يكرر هذا العمل مرة كل شهر تقريبًا ..

إن أرباح الجلود ممتازة بالتأكيد ..

لكن (جيريمياه) لم يكن ليمارس هذه التجارة ما لم يكن قد تلقى الشعلة من تاجر سابق يعرفه الهنود جيدًا ..

كان (سام مكماهون) العجوز هو من علمه هذه المهنة. (سام) العجوز السكير منتفخ البطن الذى لا يستطيع تصويب زجاجة الخمر إلى شفتيه ، قال له :

ـ « سترى يا بنى .. هؤلاء الهنود قوم شديدو الكبرياء عظيمو البأس .. لا تصدق ما يقوله هؤلاء الحمقى القادمون من المدينة ، فهم لا يعرفون شيئًا عن الهنود .. »

ويجرع العجوز جرعة أخرى من الزجاجة ويقول :

ـ « بحق الشيطان فكر أنك تتعامل مع أسد الجبال .. يجب أن تظل ثابتًا ولا تبدى الخوف ، وتنظر فى عينيه طيلة الوقت .. لا أحد يمزح مع الأسد .. لو عاملت هؤلاء القوم كما تعامل الأسد لظفرت برضاهم واحترامهم ، لكنك لن تظفر بثقتهم أبدًا ... »

وأخذه معه فى رحلته الأولى لتبادل الجلود .

كان (جيريمياه) وقتها شابًا وسيمًا مرتبكًا له شعر طويل جميل يغطى كتفيه ، وكانت ثيابه نظيفة ، لكن (سام العجوز) علمه أن يلبس ويتصرف كتجار الفراء ..

ـ « لا تحسبهم سيبشون لك ويهشون .. هم لا يعرفون كيف يبتسمون أصلاً لأن جلودهم متصلبة قاسية بفعل الريح والشمس .. فقط تذكر أنهم يحترمونك ما داموا لم يقتلوك ! »

تمت الصفقة كما هى العادة ، فعلمه (سام) أن يرحل فور الانتهاء لأنه لا أحد يبقى فى أرض (أوجيبوا) ثانية واحدة بعد انتهاء الصفقة ..

كان (سام) برغم كل شىء صديقًا مخلصًا وقد علم الفتى الكثير ، وأدرك (جيريمياه) أنه سيكون عليه يومًا ما أن يعلم شابًا من بعده كى ينقل له هذه الأمانة ..

قال له (سام) وهو يمسح فمه بكمه :

- « هؤلاء القوم يعرفون أشياء كثيرة .. صدقنى يا بنى .. إن لقبيلتهم سبعة فروع كان القوم يرونها فى أرض الفجر حيث كانت نشأتهم . أحد الفروع السبعة كان قويًا جدًا لدرجة أنه كان يقتل الناس الذين يأتون ليروه ، وهكذا لم تبق سوى ستة فروع ترمز للقبيلة .. منها رأس الثور وصانع الأصداء (الكرى) والبطة والدب والوعل .. السابع الذى رحل كان طائر الرعد . كانت النبوءة تقضى بأنه على القبيلة أن ترحل للغرب ، وإلا انقرضت بفعل الرجل الأبيض القادم من أوروبا. بدأت الهجرة للغرب عبر مناطق مميزة منها كويبك وجوار شلالات نياجرا .. وقرب متشيجان . هكذا صار الأوجيبوا يملكون معظم متشيجان ومنيسوتا ووسكونسين وجبال السلحفاة فى داكوتا.. أنت تعرف أنهم تحالفوا لفترة مع الفرنسيين ومع البريطانيين .. »

سأله الفتى :

- « ماذا تعنى بالفروع ؟ »

- « يعتقدون أنهم جاءوا من ستة حيوانات .. هذه الحيوانات ترمز لأصلهم وترمز لكل أفراد القبيلة .. إنها الجد وهى فى الوقت ذاته كل واحد منهم .. لن تفهم .. »

ثم رسم بإصبعه عمودًا تذكاريًا وهميًا :

- « لديهم هذا الشىء الخشبى الذى نحتت عليه وجوه عديدة .. يطلقون عليه اسم (دودم) .. إنه مقدس بالنسبة لهم وهناك يعقدون اجتماعاتهم المعروفة باسم (باوا واوا) كلما اكتمل القمر .. ثم يرقصون ويقيمون بعض الطقوس الغامضة .. بعضها مخيف .. صدقنى .. لكن الرجل الأبيض لا يستطيع أن يقترب .. إنهم لا يثقون بالرجل الأبيض .. إنهم يحيون بعضهم قائلين : آنيين أودودمايان ؟.. يعنى (ما هو الدودم الخاص بك ؟).. هذا لأن الدودم هو كل شىء وهو ما يمثل كل واحد منهم أمام الآخرين وأمام نفسه .. الدودم الذى يمثل الدب كبير جدًا لدرجة أنهم يستعملون أجزاء منه فقط كالرأس أو الضلوع .. »

ثم بصق فى النار ، وقال :

- « أريدك أن تعرف لكن لا تحاول أن تروى ظمأ فضولك .. إنك تخاطر بحياتك إن فعلت .. »

- 2 -

إنه الشتاء ..

لقد مات (سام) منذ عامين بسبب فشل الكبد .. اصفرت عيناه وراح يقىء دمًا ، لكنه أصر على أن يعالج نفسه بالمزيد من الخمر .. هذا عجل بنهايته على كل حال ...

الآن صار (جيريمياه) وحيدًا يمارس كل ما مارسه صديقه القديم. يعبر بالقارب إلى أرض (الأوجيبوا) ليجرى صفقة تبادل الجلود ثم يعود .. الكل يحسده لأنه ليس بوسع كل واحد أن يتعامل مع هؤلاء القوم ، لكن تركة العجوز (سام) كانت باقية ..

ما زال (الأوجيبوا) يعيشون فى جماعات تمارس الصيد وصيد السمك وزراعة الذرة .. يعيشون فى (وجوام) وهى أكواخ مدببة من أعلى تميز جماعاتهم ..

كان يعرف أن الزمن يتغير ، وأن الجيش الأمريكى سوف يظهر فى لحظة ما لينقلهم إلى مكان آخر ، ولن تكون هناك جلود بعد اليوم .. لقد حاولت الحكومة الأمريكية نقلهم إلى منيسوتا غرب المسيسبى وقد ارتكبت مذابح كثيرة لهذا الغرض .. كان الهدف يرمى إلى عزلهم فى (كانتونات) منفصلة كى ينعم البيض بأرضهم .. لكن هؤلاء القوم قاوموا بشدة حتى عجزت الحكومة الأمريكية عن التخلص منهم ..

ظل لفترة طويلة يمارس هذه التجارة معهم ... كان يبيع الجلود بعد هذا ، ثم كان يتوجه إلى (بسمارك) كى ينفق ما كسب فى الحانات ويقضى أيامًا من الصخب لا تنتهى ، حتى تفرغ جيوبه فيعود لهم .. وبرغم أنه مارس أنواعًا عدة من الرذيلة فإنه لم يذق الخمر ثانية ، لأن صورة (سام العجوز) وهو يقىء دمًا كانت تطارده باستمرار ..

الحياة منتظمة هادئة ، فهل تعرف السبب الذى جعله يقرر أن يفسد هذا كله ؟

* * *

الفضول قتل القط ..

لكن (جيريمياه) يؤمن أن كل شىء محدد سلفًا حتى لحظات ضعفنا.. لقد شاء القدر أن يختار يوم اكتمال القمر بالذات كى يقوم بعملية تبادل الجلود..

وعندما جاء الهنود وألقوا له بالبضاعة ، وعندما ابتعدوا وأطفأ النار وتأهب للرحيل ، خطر له أنه يسمع شيئًا ..

بالفعل كان صوت دقات الطبول قادمًا من بعيد ، وهو إيقاع منتظم يحرك كل عضلة فى جسدك .. نوع من الرغبة المحمومة فى الجنون تتصاعد لرأسك ..

بوم .. ببوم .. بوم ...

بوم .. ببوم .. بوم ...

يتخيل النار المشتعلة العالية والصنم المنتصب والهنود يرقصون حوله بطريقة مبهرة تمارس نوعًا من التنويم المغناطيسى على وعيك ..

إن الشمس سوف تغرب قريبًا .. هذه الدقات هى إنذار باقتراب (الباوا واوا) .. لكن الأمور ستبلغ ذروتها عندما يكتمل القمر ...

لا يعرف متى جر القارب ليخفيه تحت مجموعة من الأشجار، ثم بدأ ينسل بين الأشجار فى الاتجاه الذى لم يمش فيه من قبل قط ... الاتجاه الذى يرحل الهنود نحوه بعد إجراء الصفقات .. لهذا إثارة بالغة تشبه أن تتبع الشمس الغاربة حتى الأفق الغربى وتواصل رحلتك لتعرف أين تغفو ليلاً ...

كان قلبه يدق مع الطبول ..

سوف يرى ويعرف .. وسوف يعود بذكرى مهمة وحكاية مثيرة ..

(برومثيوس) فى رحلة السطو على النار ... (إيكاروس) يحلق نحو الشمس بأجنحة من شمع .. هو لا يعرف هذين البطلين لكنه يشعر بما شعرا به ...

بعض هذه الطقوس مخيف .. قالها (سام) فما معنى هذا ؟.. الهنود لا يمارسون التضحيات البشرية ولا يذبحون الأسرى، فما المخيف فى الطقوس إذن ؟

يمشى والفضول يملأ قلبه ...

بوم .. ببوم .. بوم ...

بوم .. ببوم .. بوم ...

مشى كثيرًا جدًا لأن القوم كانوا يتحركون على الخيول، أما هو فليس معه جواد ولو كان معه لما جرؤ على أن يستعمله .. هؤلاء الهنود يشمون الجياد ويرون أثر حوافرها وسط مئات الآثار الأخرى ..

أخيرًا رأى جبالاً صغيرة بارتفاع قامة الرجل العادى، على كل جبل عمود من الخشب نحت عليه وجه حيوان ما .. هذا ليس غريبًا لأنه يعرف أن هؤلاء القوم يدفنون الميت تحت كومة تراب، ويضعون على الكومة (بيت الأرواح) .. أى إنهم لا يكتبون اسمه بل يضعون عمودًا خشبيًا يرمز للحيوان الذى ينتمى له ... هو إذن فى المقابر ..

مشى ومشى مسترشدًا بتعالى دقات الطبول ...

أخيرًا صار الصوت عاليًا جدًا وهو يزحف على بطنه ليطل على واد فسيح يريك نظرة بانورامية لقرية (الأوجيبوا) ..

بالفعل هناك ذلك (الدودم) الذى يبلغ ارتفاعه قامة رجلين .. هناك الخيام المدببة ، وهناك أطفال يلعبون عراة ، وهناك نار بدأت تشتعل منذرة بقدوم الليل ...

يرى قارعى الطبول يواصلون إيقاعهم الذى يشعل النفوس ...

يرى رجالاً يبدو أنهم مهمون يجلسون حول النار .. منهم ذلك الرجل (الثور الغاضب) الذى يتعامل معه . كانت زجاجات الخمر قد خرجت .. الزجاجات التى جاء هو بها ، وقد بدا غريبًا له أن يرى الويسكى فى أيدى هؤلاء .. يمررون زجاجة بينهم ويجرعون بعض الجرعات ، بينما تمر عليهم النساء حاملات جرارًا بها شىء ما ..

الرجل الذى يلبس قناعًا يشبه الدب هو الساحر بلا شك ، وهو يمسك بلفافة من قلف الشجر يقرأ ما فيها بصوت عال ..

اللفافات الشينية السرية التى تحدث عنها الصيادون !..

سر الأسرار .. لا أحد يعرف محتواها سوى الساحر نفسه ...

الليل يقترب .. القمر سوف يبزغ بعد قليل ....

يجب أن يرى .....

* * *

فى البداية حسب أن التركيز والظلام يخدعانه ...

ثم أدرك أنه يرى ما رآه وأنه غير واهم ..

إن ذلك المشهد الذى اختلط فيه الظلام بضوء القمر الفضى باللهب المتراقص لن يُنسى ثانية أبدًا .. يكفى أن تعرف أنه عض كمه بعنف كى لا يصرخ ، وحتى سال الدم بغزارة من ساعده ..

من السهل أن تجن أو تفقد روعك عندما ترى شيئًا كهذا ....

حاول أن يصمد بعض الوقت ليفهم ما يحدث لكنه لم يستطع ..

كان هذا أقوى منه..

وفى اللحظة التالية كان يركض وسط الأشجار مبتعدًا .. هل ستكون رحلته فى النهر آمنة فى هذا الظلام ؟.. لا يهم .. المهم أن يبتعد عن هذه الجزيرة اللعينة ..

عندما تتعامل مع رجل عدة أعوام ثم تكتشف فجأة أنه الشيطان ...

لقد نجا بمعجزة من سنوات التعامل هذه .. (سام) لم يكن يعرف هذه التفاصيل وإلا لبحث عن مصدر رزق آخر غير الجلود ..

يركض هاربًا فى الظلام مهتديًا بضوء القمر .. من بعيد تدق الطبول ..

بوم .. ببوم .. بوم ...

بوم .. ببوم .. بوم ...

إنه الآن فى منطقة المقابر .. فجأة يصطدم بشىء أو شخص ما ..

يسقط معه على الأرض ويرفع عينه ليدرك أنها امرأة هندية مذعورة بدورها ..

قبل أن يتكلم كانت قد فتحت فمها كبئر وأطلقت صرخة حادة .. صرخة طويلة .. صرخة تصم الآذان ...

لابد أن حناجر هؤلاء القوم ليست كحناجرنا ....

وسمع الطبول تكف عن الدق ، ثم سمع صراخ هؤلاء القوم وهم يهرعون لنجدتها ..

هناك رجل أبيض دنس طقوسنا الدينية .. قبيلة (الأوجيبوا) كلها ضد هذا الأبيض الذى تجرأ وعرف كل شىء ..

نهض وراح يركض كالمجنون ..

صوت الصراخ من خلفه .. صوت حوافر الخيول .. صوت الرجال ..

ثم صوت الكلاب !

عندما يطاردك الهنود بخيولهم وكلابهم وأنت على صهوة جواد فإن فرصة نجاتك معدومة ، فماذا عن فرصة نجاتك وأنت تجرى على قدميك ؟

ينظر للخلف ثم يقرر أن يستمر ... من ينظروا للخلف وهم يركضون يتعثروا ...

لا يعرف كيف ولا متى وصل إلى الشاطئ ولا كيف جر قاربه إلى النهر فى الظلام ، ولا كيف راح يجدف كالمجنون وهو يتوقع الرمح الذى سيخترق قلبه فى أية لحظة ..

فقط نظر للخلف مرة فلم ير أحدًا .. عندها فقط استطاع أن يسترخى قليلاً وأدرك أنه لم يتنفس تقريبًا منذ صرخت تلك المرأة حتى الآن .. لا .. منذ رأى ما رأى فى ذلك (الباوا واوا) حتى الآن ...

بعد أن استعاد أنفاسه عاد يجدف بسرعة ، لأن الخطر لم يبتعد كثيرًا .. من الممكن أن يرى قواربهم وعليها مشاعلهم تلاحقه فى أية لحظة ...

كان القمر يسمح له برؤية طريقه ، وإن لم تكن الرحلة هينة لأن النهر ليس وديعًا جدًا ...

لقد نجا (جيريمياه) بالطبع وإلا لما عرفنا هذه القصة ، لكن أيام بيع الجلود انتهت .. لقد ذبح الدجاجة التى تبيض ذهبًا والسبب فضول أحمق ...

سوف يعيش ويموت دون أن يجسر على الاقتراب من جزيرة السلحفاة.. حتى إن رأى هنديًا يبتاع شيئًا فى المدينة كان يفر منه فراره من الأسد ، لأن فكرة أن يلاحقوه للانتقام لا تفارق مخيلته .. طعنة فى الظلام وجثة لا يعرف أحد قاتلها .. ما أسهل هذا ..

هم على الأرجح عرفوا من هو .. لابد أن أحد كشافتهم رأى القارب الصغير وهو يبتعد فى البحيرة .. ربما وصفته المرأة للمحاربين ...

بعد أعوام عرفت حانات المدينة (جيريمياه) سكيرًا مفلسًا يتردد عليها محاولاً إقناع أى شخص بأن يبتاع له كأسًا من الخمر ، وكان يحكى حكايات غريبة عن الأوجيبوا لم يصدقها أحد ، وكان يحكى عن (الدودم) ـ الذى لم يعرفوا ما هو ـ بلا توقف ، وفى النهاية مات وقد تلف كبده ...

* * *

اليوم نجحت حكومة الولايات المتحدة فى القضاء تقريبًا على (الأوجيبوا) ، لكن من بقوا منهم أحياء موجودون فى جبال السلحفاة فى شمال (نورث داكوتا) ... وهى جبال تعج بالبحيرات ومناجم المنجنيز. هناك محمية السلحفاة التى يعيش فيها الهنود .. وهناك بحيرة (متيجوش) التى تقع بين أمريكا وكندا حيث يحتشدون ويمارسون صيد الأسماك ....

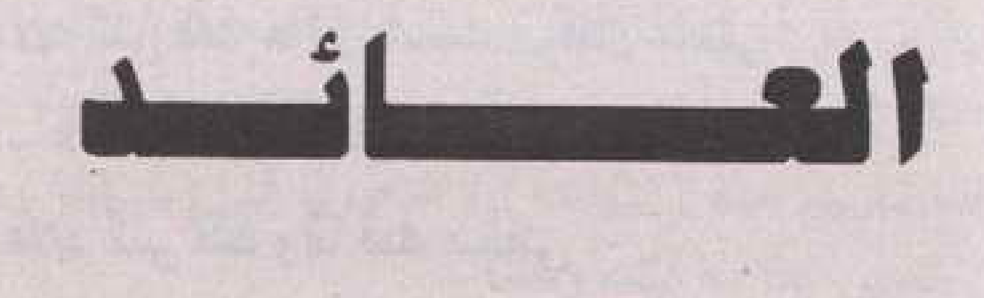
من الغريب أن القلاقل استمرت حتى زمن قريب نسبيًا ، خاصة فى مدينة (الركبة المجروحة) بساوث داكوتا حيث دفن زعيم السيوكس (الجواد المجنون) منذ عام 1877 . فى ذات المدينة وقعت مذبحة عام 1890 على يد رجال جيش الولايات المتحدة . ثم وقعت مذبحة أخرى عام 1973 حيث حاصر جيش الولايات المتحدة المدينة إثر انتفاضة من الهنود فيها ، وتم تبادل إطلاق النار ..

هذه هى القاعدة التى وجدتها حكومة الولايات المتحدة مفيدة مع الهنود .. اقتلهم بلا رحمة .. اقتلهم كالدجاج ... حاصر من يبقى حيًا منهم .. بعد قليل سوف يستسلمون ويكتفون ببيع التذكارات للسياح ، والظهور فى الأفلام السينمائية ليرقصوا حول النار وهم يغنون .. لن يبقى من الحضارة الهندية سوى بعض الأشياء الطريفة الموحية بالغموض والسحر لأن هذا يثير الخيال الغربى ، مثلما لا يجب أن يبقى من الحضارة العربية سوى الأهرام والجمال وبعض لمحات ألف ليلة وليلة ..

فقط حاول فيلم واحد أن يعيد بعض الاعتبار للهنود ، وكان هو فيلم (يرقص مع الذئاب) الذى صور فى نفس المكان تقريبًا : (ساوث داكوتا) قرب الحدود الكندية ، وكانت قبيلة (السيوكس) هى محور قصته ...

لقد انتهت قبيلة (الأوجيبوا) تقريبًا لكنها ظلت تحمل لطوطمها ذات الإخلاص ...

وكانت تلك هى المشكلة ...



- 1 -

لا أذكر بصراحة كيف قابلت (راسم أبو سيف) ..

ربما عرفته عن طريق د. (رمزى حبيب) خبير المصريات، لكنى لا أستطيع أن أقسم على هذا لو طلبت منى . على كل حال يمكننى أن أتخيل ما دار فى المحادثة بلا جهد :

- « (راسم أبو سيف) ؟.. اسم غريب جدًا ! »

لابد أننى قلت هذا وابتسمت .. فقال محدثى :

- « لا أجده بهذه الغرابة .. »

فلابد أننى قلت وأنا أحك صلعتى :

- « لا أدرى .. لو كان (محمد أبو سيف) أو (عادل أبو سيف) أو (راسم شاهين) لبدا معقولاً ، لكنه بهذه الطريقة يبدو ملفقًا .. كأنه اسم بطل قصة لا وجود له فى الواقع .. »

قال لى بعصبية :

- « هذا ما تراه أنت .. إذا كنت تفضل أن نلغى هذا الرجل من الوجود لأن اسمه لا يروق لك فلتقل هذا بوضوح .. »

- « لو كان هذا ممكنًا لكانت الحياة رائعة .. لكننى سأقبل وجوده بقلب سمح .. أنت تعرف أننى أتميز بالسماحة .. »

على كل حال كان لقاؤنا فى أحد فنادق القاهرة المطلة على النيل .. لم يكن اسمه هو الغريب فقط بل هو نفسه كان غريب المنظر.. أنت تعرف أن الناس ينظرون لى فى دهشة عندما يروننى ، لكنهم فى هذه المرة لم يلحظوا وجودى أصلا ولا أعنى بهذا أن الرجل كان قبيحًا.. كان فقط غريب المنظر فعلاً. وكان يتحدث عربية رديئة جدًا ..

إنه فى الخامسة والثلاثين ، أسمر اللون له ملامح صلبة وجلد مشدود ، وهو فارع القامة قوى البنية بشكل ملحوظ ، غير متأنق لكنها تلك (البهدلة) التى تميز الغربيين ولا تصدمك كثيرًا .. فى عقولنا نترجم هذه (البهدلة) لا شعوريًا إلى (بساطة) بينما نكون قاسين جدًا مع أبناء وطننا ..

كانت قبضته قوية جدًا وهو يصافحنى ويدعونى للجلوس ، ثم قدم لى امرأة أمريكية جدًا .. شعر أشقر وبشرة حمراء كسرطان البحر المسلوق ونحول مبالغ فيه .. لماذا يبدو الأجانب أجانب جدًا عندنا فى مصر ، بينما لا تجدهم بنفس الغرابة فى بلادهم ؟

- « (فيكى) .. زوجتى .. »

- « هاى .. »

- « هاى .. »

كان يتكلم بتلك الطريقة التى تضع لفظة أجنبية كل ثلاث كلمات عربية ، وهنا تذكرت ما قاله لى محدثى .. إن (راسم) ابن لأب مصرى وأم أمريكية.. هذا صحيح ، لكنه لم يأت لمصر قط ولم يستخدم اللغة العربية فى حياته ...

ـ « نورث داكوتا .. أنا قضيت حياتى فى نورث داكوتا .. أى إننى كنت أقرب لكندا منى إلى الولايات .. »

لو تأملت هذه الولاية على الخارطة لوجدت أنها مستطيل تحده من الشرق ولاية منيسوتا ومن الغرب ولاية مونتانا ومن الجنوب ساوث داكوتا طبعًا بينما تشترك فى الحدود مع كندا .. لا أعتقد أن هذه الولاية تتميز بشىء خاص على كل حال .. إنها باهتة الشخصية أو هذا ما أعتقده ..

كان (راسم) قد قرر أن يستقر فى مصر .. لا أعرف السبب بالضبط لكنه قال إنه (مل الولايات).. لسبب ما شعرت فى كلامه أنه يمقت الولايات المتحدة ويرغب فى أن ينسى حياته فيها .. لم يحمل معه سوى ذكرى واحدة منها هى زوجته ، وفيما عدا ذلك يبدو أنه قرر أن يبدأ من جديد .. لا أجد صعوبة فى فهم هذا لأننى أمقت الولايات المتحدة بدورى بينما أميل إلى أوروبا أكثر. وكان ثريًا لدرجة لا تصدق لهذا بحث عن نشاط مناسب يمكن أن يقوم به هنا ، وقد اتفق على عدة مشاريع .. كان هذا صعبًا

خاصة أننا كنا فى عصر ما قبل الانفتاح ، حيث لا يمكنك أن تتذكر قراءة تعبير (مستثمر أجنبى) فى أية جريدة من قبل .. لكنه استطاع كما يبدو أن يحقق بعض الصفقات الجيدة ..

قلت له وأنا أنظر إلى حمام السباحة خارج النافذة التى يجلس جوارها :

ـ « كل هذا جميل ، لكنى لا أفقه حرفًا فى هذه الأمور .. ليس لدى أى شىء أقدمه لك ولا أعرف لماذا طلبت مقابلتى .. »

قال بطريقته الصعبة التى تشعرك بأنه يعانى سوء هضم مزمنًا :

ـ « مُتحف .. مُتحف أهلى .. أريد إنشاء واحد .. »

هذا غريب حقًّا .. مُتحف ؟.. وما موضوعه بالذات ؟

قال وهو يشعل لفافة تبْغ :

ـ « الأنثروبولوجى .. آثار الحضارات القديمة .. الأديان القديمة لدى الشعوب .. »

ـ « وهل تعتقد أن هذا مشروع ناجح ؟ »

ـ « ليس المال كل شىء .. فقط أريد أن أقدم خدمة ثقافية لقومى الذين هم قومك .. »

تساءلت فى غباء :

- « وما هو دورى فى هذا كله ؟.. »

- « أريد أن تشرف على الموضوع .. تكون .. أ .. Curator .. تكون ... »

- « أمين متحف ..... »

- « نعم .. نعم .. أمين متحف .. قيل لى إن لديك خبرة كبيرة بالأساطير والعقائد القديمة .. هذا مهم .. رجل مثقف مثلك ويعرف الكثير .. يمكن أن أعهد له بالمتحف بلا قلق .. »

- « وهل تعتقد أننى سأحمل رفشًا وأذهب للبحث عن آثار تناسبك ؟ »

لم يفهم الدعابة ، وقال ملوحًا بلفافة التبغ :

- « لا .. لا .. لدى مجموعة خاصة ممتازة .. ستكون نواة للمتحف .. إنها قادمة من الولايات وسوف تكون هنا خلال أسبوع .. ما أريده هو من يشرف على الموضوع علميًا لأننى لا أملك الخبرة الكافية ولا التفرغ ولا حتى اللغة العربية التى لا أملك زمامها.. عليك كذلك أن تتولى الموضوع إداريًا .. »

رحت أتخيل راجفًا كل هذه التعقيدات .. تصاريح وزارة الثقافة .. شراء أرض أو تخصيصها .. لقاءات مع مسئولين .. تعيين طاقم

عاملين وأمن وهيكل إدارى كامل .. الضرائب .. دفاتر المحاسبة .. دفاتر عهدة وجرد الممتلكات .. سكرتارية .. مناقصات .. مقاولون ..

لقد اختار آخر واحد على كوكب الأرض يصلح لهذا الغرض ..

قلت له وقد بدأ الموقف يروق لى :

- « ما كنت لأتصور شخصًا أقل مناسبة منى لهذه المهنة .. »

- « لماذا ؟.. يمكنك القيام بذلك .. »

- « أنا من يحدد إن كنت أستطيع أم لا .. ولتحمد الله على أنك قابلت رجلاً يعرف قدراته ولا يدعى شيئًا ... تسعة من كل عشرة أشخاص تقابلهم يعتقدون أنهم عباقرة وقد خلقوا قادة .. ربما لو طلبت من أحدهم قيادة غواصة ذرية لوافق على الفور .. من حسن حظك أننى العاشر ، والعاشر يقول لك : جد شخصًا غيرى .. »

نظر لزوجته فى حيرة .. لا أعتقد أنها فهمت حرفًا من المحادثة لكنها فهمت من الإيماءات أننى أرفض ..

قال لى (راسم) وهو يدفن بقايا لفافة تبغه فى رمال المطفأة الرأسية الموضوعة جواره :

- « فقط لو عرفت كم سأدفع لك .. »

ـ « تدفع لى من أجل الفشل ؟.. ثق أننى لا أصلح وتصرف على هذا الأساس .. »

كان لحوحًا لكنى كنت ثابتًا كطود ، وقد راح يعرض على الحجج والإغراءات ، لكن لم يبد لى أى منها مقنعًا ، دعك من الغباء الواضح فى هذا الكلام .. رجل واجه لعنة قديمة أو لعنتين ومصاص دماء أو مصاصين .. هذا لا يكفى لجعله صالحًا للإشراف على متحف ...

فى النهاية انتهت الجلسة وكانت طريقتى فى الفرار هى أن أقنعته بأننى سأبحث عن شخص يصلح .. وأعتقد أننا افترقنا صديقين ..

فيما بعد اتصلت بالشخص الوحيد الذى أعرف أنه قد يساعدنى ، وهو د. (رمزى حبيب) وحكيت له عن مشروع هذا الفتى المتأمرك فضحك كثيرًا ، وقال :

ـ « سوف يرى العجب .. دعه يتعلم درسًا أو اثنين عن البيروقراطية المصرية .. »

ـ « وهل تقبل أن تساعده أو تجد له من يساعده ؟ »

بالطبع قال لى الحجة المعتادة : سوف يبحث عن شخص يصلح .. إنها طريقة فرار لا تفشل أبدًا ..

على كل حال قمت بما وعدت به ، ولن يؤنبنى ضميرى بعد اليوم ..

ـ 2 ـ

بعد عام دوى جرس الهاتف فى شقتى العامرة بالأشباح فرفعت السماعة فى غيظ كعادتى كلما قرر أحدهم استعمال هذا الاختراع المقيت ..

ـ « د. (رفعت).. أنا (راسم أبو سيف) .. »

بدا لى الاسم غريبًا ملفقًا ، لكنى لم أستطع تذكر متى سمعته أول مرة ..

ـ « (راسم) من ؟ »

ـ « (أبو سيف).. لا أعتقد أنك نسيت موضوع المتحف .. »

ـ « فى الواقع هذا ما حدث وإننى لآسف .. »

بعد لحظات من التذكر وانتشال هذه الذكرى من تحت محيطات الأحداث اليومية ، وجه لى دعوة مهذبة لزيارة المتحف الذى أقامه فى فيلا بضواحى الجيزة ، وقد أصابتنى الدهشة لأنه فعل ما أراد فعلاً .. ولأنه فعله بسرعة .. فترة عام فترة قصيرة جدًا هنا ...

بالطبع فى هذه الدعوة رسالة مستترة معناها (لا تحسب أننى ضعت من دون عونك) .. لا أنكر أننى معجب بهذا الفتى . لكننى لن أسمح لهذا الإعجاب لأن يدفعنى إلى أن أخجل من نفسى وأموت قهرًا ..

هكذا وضعت السماعة وقد قررت أن أرى هذا المتحف ..

* * *

عندما أوقفت السيارة أمام الفيلا المذكورة ، رحت لبضع دقائق أتأمل المنظر . لا يبدو الأمر كأن هناك متحفًا هنا .. فعلاً هى فيلا عادية جدًا .. ليست قصرًا مثل قصر (محمد محمود خليل) باعتبار هذا هو المتحف الوحيد الذى أعرفه ويعرض مجموعة خاصة .

هناك لافتة كتب عليها (متحف راسم للآثار الإنسانية) . لا يبدو عنوانًا مشجعًا للزيارة.. ثم إن مكان المتحف غريب وناء جدًا .. لا أتصور أن تنظم مدرسة رحلة إلى هذا المكان لتلاميذها مثلاً ..

العلامة الأولى على أن هذا متحف هو كشك صغير جوار البوابة به حارس عجوز قال إن على أن أدفع ثمن تذكرة .. كانت التذكرة رخيصة الثمن فلم أجد داعيًا للتهليل والصياح بأن مدير المتحف هو من دعانى ..

أخذت الوريقة الصغيرة ودسستها فى جيبى ثم مشيت عبر ممر طويل نحو باب زجاجى مغلق .. أزحته فوجدت مكتبًا صغيرًا تجلس خلفه سكرتيرة حسناء ، قالت لى فى ترحاب :

- « مرحبًا بك .. هل هى زيارتك الأولى ؟ »
- « نعم .. »

وكنت قد قررت أن أرى المتحف بنفسى لأكون نظرتى الخاصة ، قبل أن أقابل (راسم) .. أريد أن أكون وحدى ..

لكن (وحدى) كانت حلمًا مستحيلاً مع هذه الآنسة المتحمسة التى تلعب كما يبدو دورًا هو خليط من السكرتيرة والمرشدة السياحية والصديقة والمضيفة .. كانت تتواثب كالقرد فى كل مكان وهى تشير إلى شىء تلو الآخر وتقول كلامًا كثيرًا .. بصراحة لم أفهم حرفًا ..

لم يكن هناك زوار تقريبًا .. كلا .. هناك فتى وفتاة يقفان متشابكى الأيدى أمام واجهة زجاجية وقد تلامس رأساهما ، وأدركت أن الأنثروبولوجى هو آخر شىء يهتمان به .. لقد جاءا هنا لأنه لا يوجد مكان آخر يبعدهما عن أعين الفضوليين ورجال الشرطة وأقارب الفتاة وباعة السميط اللحوحين الذين يجيدون الابتزاز .. عرفت حبيبين يلتقيان دومًا فى متحف السكة الحديد كأنهما مولعان جدًا بالقاطرات البخارية ...

كانت هناك مومياء كاملة خلف واجهة زجاجية .. مومياء من مومياوات حضارة المايا أو الأزتك التى تجلس القرفصاء ممسكة بجانبى رأسها لأنها تشكو الصداع.. أعرف هواية هذه المومياوات اللعينة فى أن تثب فى وجهك فى أية لحظة ..

هناك آنية صينية من عهد أسرة (منج) كما يبدو .. وهناك سجادة بريطانية عليها لوحة تمثل معركة بين السكسون والنورمان رسمت بتلك الطريقة البيزنطية الساذجة .. كل شىء فى مستوى واحد والبعيد أكبر حجمًا من القريب ...

هناك مجموعات من رسوم إيرانية .. هناك تماثيل بدائية جدًا أعتقد أنها لحضارة من بولينيزيا .. هناك أسد صغير طفل محنط .. ويبدو أنه هلك منذ زمن سحيق لأن حالة النموذج كانت شنيعة ..

لم تكن هناك آثار فرعونية على الإطلاق .. بالطبع .. لا يمكنه أن يحصل عليها من الحكومة المصرية، ولو جاء بشىء من مجموعته لصودر .. نحن نعرف أن معظم الآثار الفرعونية سرقه البريطانيون والفرنسيون والألمان منذ قرن أو قرنين، لكن من الوقاحة أن يحاول أحدهم عرض هذه الأشياء فى البلد الذى سرقت منه ..

هناك أسد آشورى ملتح .. وهناك بيض من رخام عليه نقوش دقيقة رائعة أعتقد أنه يابانى ..

هناك طوطم كبير الحجم من الخشب ارتفاعه كارتفاع رجلين عليه ستة وجوه حيوانية .. هذا الطراز لا ينتمى لأفريقيا بل هو غالبًا يخص حضارات الهنود الحمر .. أذكر صورة شهيرة جدًا تمثل جنديًا من حرس الحدود الكندى يقف ناظرًا لطوطم عملاق كهذا ..

هناك خوذة رومانية بحالة جيدة جدًا .. وكذلك هناك خوذة شديدة التعقيد تغطى الوجه فيها شبكة حديدية مع شعارات نبالة أوروبية الطابع .. واضح طبعًا أنها خوذة من عصر الحروب الصليبية ..

هناك جوار كل نموذج بطاقة كتبت عليها معلومات غزيرة بخط لا يمكن قراءته .. وبالعربية والإنجليزية والفرنسية ...

هناك رجل أمن .. لا .. ليس أثرًا من جزر الأوقيانوسية .. إنه رجل أمن حقيقى بقميص سماوى وسروال أزرق يقف يراقبنى فى فضول كأننى السيرك القومى .. وقد أدركت من منظره أنه مستمتع جدًا بهذا الحصار الذى أمر به، دعك من أن رائحة التبغ تفوح منه بقوة .. هو إذن يمارس عادة رجال الأمن فى التدخين فى الحمام ... ربما استفدت أكثر لو تبادلت معه بعض الكلمات ..

لكن الفتاة لا ترحمك .. فهى لا تكف عن الكلام والشرح .. إنها مصممة على أن تستحق راتبها حتى آخر مليم ...

فى النهاية أطلقت سراحى، فسألتها عن (راسم) .. أشارت لى إلى مكتب جانبى عليه لافتة تقول (المدير) فاتجهت إليه وقرعت الباب ..

كان المكتب ضيقًا لكنه فاخر ، وقد علقت على جدرانه قطع فنية يمكن أن تعتبرها امتدادًا للمتحف ذاته .. هناك عدة شاشات صغيرة مما يدل على وجود كاميرات مراقبة فى الخارج ..

رحب بى فى شىء من الحرارة .. لم يكن قد تغير على الإطلاق .. سألنى عن رأيى فى المتحف فأبديت الحماس ، لكنى فى الحقيقة كنت أشعر بنوع من خيبة الأمل .. هناك أشياء طيبة لكنها ليست بالكم الذى يمكن أن نقيم عليه متحفًا ناجحًا .. الرسالة التى تربط هذه الأشياء غير واضحة ..

قلت له :

ـ « تريد القول إن هناك أناسًا وجدوا فى الماضى السحيق وصنعوا أشياء .. »

هذه العبارة التى اعتبرها مديحًا هى بالضبط موضع انتقادى .. من المفترض أن أى متحف يمارس درجة من التخصص التاريخى أو الجغرافى .. لكننى وجدت هنا خليطًا من كل شىء .. معرض عاديات يعرض أشياء قديمة جدًا ، ولربما لو بحثت جيدًا لوجدت فونوغراف جدى أو مكحلة جدتى ..

لكنه كان يبحث عن المديح .. يريد شخصًا يقول له إنه رائع ، وقد فعلت ذلك بطريقة بارعة جدًا :

ـ « رائع .. »

ـ « شكرًا .. »

ثم راح يحكى لى قصة طويلة عن الطريقة التى ظفر بها بكل عينة من هذه المجموعة .. الحق أنه كان ثريًا وقد صرف الكثير فعلاً.. لقد سافر إلى بلدان عديدة ، أما الطوطم فهو من مسقط رأسه .. إن قبائل (أوجيبوا Ojibwa) الهندية كانت تعيش فى (نورث داكوتا) على الحدود الكندية ، وهى من القبائل التى اشتهرت بممارسة عقيدة الطوطم .. بل إن لفظة (طوطم) لا تذكر من دون ذكر اسم هذه القبائل .. لقد حصل عليه من هناك ..

كنت أعرف شيئًا أو شيئين عن عقيدة الطوطم ، التى يعتقد علماء الأنثروبولوجى أنها مورست لدى كل قبيلة بدائية على الأرض . انقرضت ؟.. ليس إلى هذا الحد ... عندما يتخذ فريق كرة قدم أو كرة سلة من حيوان شعارًا له ، وهو ما يحدث كثيرًا فى الغرب ، فهو يمارس عقيدة الطوطم لا شعوريًا .. فلتفرح أيها الخواجة (يونج) فى قبرك .. كل يوم يبرهن على أنك عبقرى ..

بعض الآثار مسروقة طبعًا .. هو ابتاعها من سارقيها ، لكن أحدًا لن يفتش عنها هنا فى مصر .. إن مومياوات المايا لا تباع فى السوق بالتأكيد ..

سألته فى حذر :

- « لكنك لا تتوقع ربحًا من هذه الفكرة كما قلت منذ عام .. »

- « لا أذكر ما قلته لك وقتها ، لكنه لن يخرج عن كون حساب المكسب والخسارة ليس كل شىء فى العالم .. لقد منحت وطنى الأصلى كنزًا ثقافيًا كالذى منحه له (محمد محمود خليل) ، ويومًا ما سيذكر لى الناس هذا .. »

ليكن .. ما دام سعيدًا فليفعل .. المهم أن يبقى بعيدًا عنى ..

لكنه قال لى وهو يدس فى يدى حزمة من المطويات الخاصة بالمتحف :

- « هل لديك تذكارات ترغب فى عرضها هنا ؟.. تذكارات تمت لعالمك الخوارقى وثقافات الأساطير ؟ »

لا أذكر أن عندى تذكارات ملموسة ، دعك من أنه لن يرحب بيد (بيزارو) لو أحضرتها له .. لو أن لى اتصالاً بالمتحف الأسود الذى زرته من قبل لجلبت له تذكارات لن يصدقها ما لم يرها .. لقد وجدت كذلك ذراع مومياء وصفحات من كتاب نيكرونوميكون وصندوق بندورا وإصبع مذءوب وقلادة زوج (ليليث) .. إلخ .. لكننى لم أحرص على الاحتفاظ بشىء من هذه الأشياء الرهيبة ..

- « هل تقبل أن أتصل بك لو جد جديد أو احتجنا لشىء ؟ »

قلت فى سماحة :

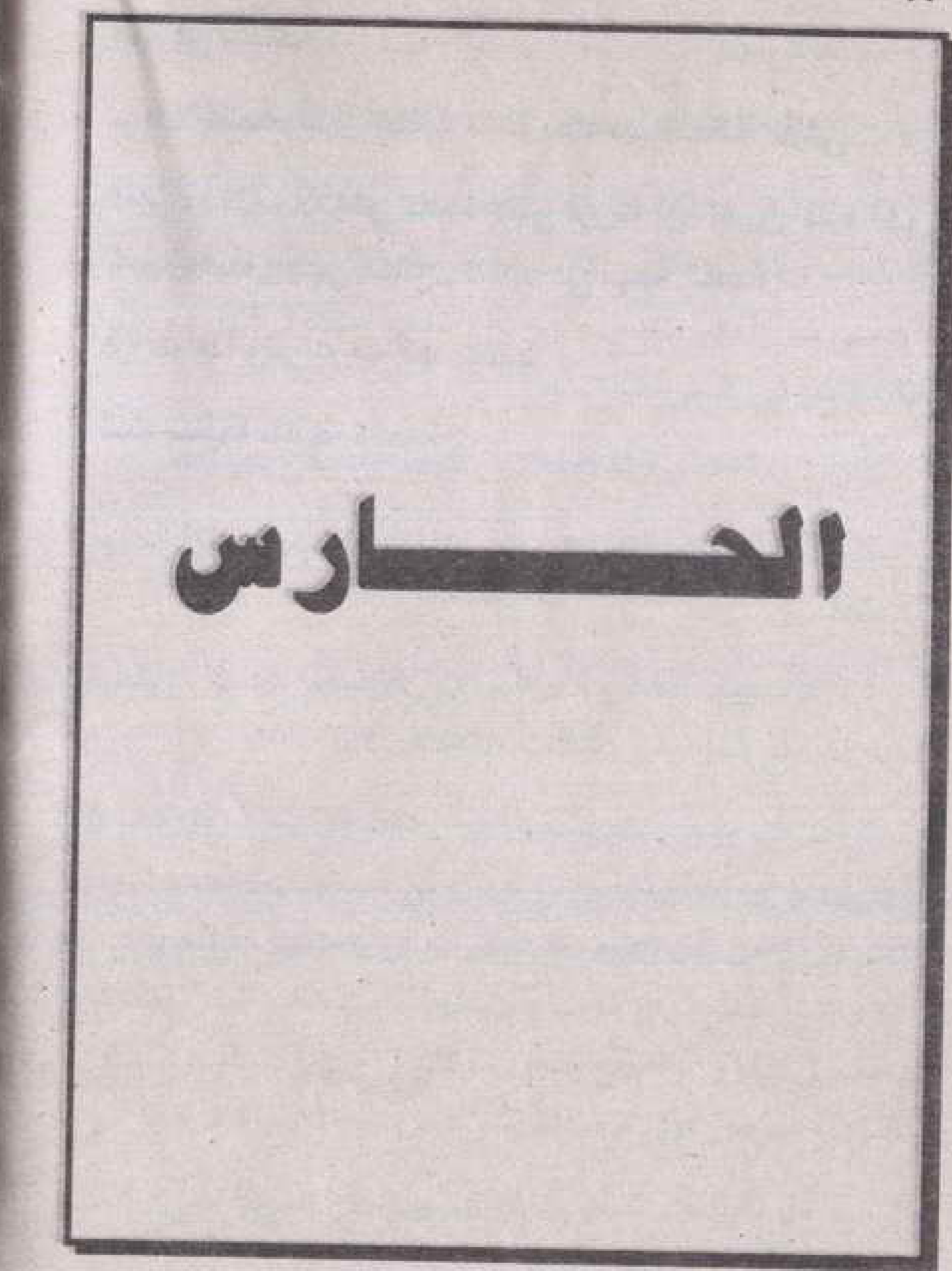
- « لا حاجة لك أن تطلب .. أنا معك منذ اللحظة الأولى .. »

كان هذا كله كلامًا فى كلام ، لأننى قررت أن تكون هذه آخر مرة يرى فيها وجهى الكالح .. هذه هى نهاية القصة ..

قررت هذا ولم أعرف أنها بدايتها ..

كنت ساذجًا ساذجًا كالعادة ..

* * *



الحارس

- 1 -

لم يكن اسمه (بسيونى) ..

هذه نقطة خطيرة جدًا ويمكن أن تؤدى إلى الفشل .. عندما تتوجه لمقابلة عمل يطلب حارسًا خاصًا أو رجل أمن وأنت لاتدعى (بسيونى) فأنت تجازف بالفشل .. قلت مائة مرة من قبل إن المخبرين لابد أن يكون اسمهم (بسطويسى) ورجال الأمن يكون اسمهم (بسيونى) ، ومن يخرق هذا يعامل بلارحمة ..

لكن (عامر شحاتة) لم يكن يملك ترف الاختيار ؛ لأنه فى هذا الوقت بالذات كان قد فقد عمله فى وزارة الداخلية بسبب الإصابة ، وكانت زوجته حاملاً فى شهرها التاسع ..

(عامر شحاتة) فلاح المنوفية الأسمر قوى البنية ذو الشارب الغليظ (الحكومى) هو رجل طيب فعلاً.. فى قريته يحبونه كثيرًا وقد عرف الناس عنه أنه مهذب متدين ولا يريد سوى أن (يأكل عيش) ..

لهذا عندما قال له عم (صلاح) البقال إن هناك من يطلب رجال أمن فى الجريدة ، أدرك أن الله لن يتخلى عنه فى هذه الورطة ..

كان العمل يتعلق بمتحف فى الجيزة ، والإعلان يطلب رجال أمن من ذوى الخبرة ، أو بلغة الإعلان الركيكة (رجال أمن ذات خبرة) .. وعد براتب مجز .. هذا يبدو جيدًا ..

فى الصباح ارتدى البذلة الوحيدة التى لديه وحلق ذقنه بعناية ، وعندما تأمل نفسه فى المرآة وجد أنه يبدو مهرجًا كعادته كلما تـأنق . لكنه أمل أن تكون هذه العضلات البارزة فى صدره وذراعيه .. العضلات التى توشك على أن تفجر البذلة قادرة على أن تنسى القوم مظهره المضحك. طلب من (أمينة) أن تدعو له ، وانطلق فى رحلته الشاقة صبيحة ذلك اليوم من أجل المقابلة الشخصية .. لا يشعر براحة فى هذه الثياب دعك من رائحة الفازلين الذى دهن به شعره .. لكنه سيتحمل ....

ابتاع من (سيد) بعض شطائر الفول والطعمية التهمها بسرعة وهو ينتظر الحافلة ، قبل أن يبدأ رحلته المرعبة إلى الجيزة .. لهذا كانت الحموضة تضايقه فعلاً عندما ذهب لهذا اللقاء ..

كان ما أسعده عندما وصل هناك هو أنه لم يجد سوى ثلاثة آخرين .. وقد أدرك على الفور أن العمل لن يكون شاقًا والمهنة مريحة .. تصور أن يعينوك لحراسة برج القاهرة ويعطوك راتبًا مجزيًا . على الأرجح لن تتعب على الإطلاق ..

عندما استدعوه لمقابلة المدير ، وجد أمامه شابًا أسمر لا يجيد العربية تقريبًا برغم أنه مصرى كما هو واضح ، وينادونه باسم (راسم). جواره كانت سكرتيرة حسناء ورجل مصرى يبدو أنه يلعب دور المترجم .. كان هناك جو عام من العجلة ونفاد الصبر ،

ومن الواضح أن القرار سيتخذ بسرعة .. إنهم لم يهتموا كثيرًا بتفحصه أو ملاحظة العرج فى مشيته عندما دخل ...

أمام الرجل المصرى كانت هناك بعض الأوراق .. الأوراق التى سلمها للسكرتيرة الأخرى خارج الغرفة ، وقد وقف أمامهم مستسلمًا فوجه له (راسم) بضعة أسئلة :

- « هل تقبل ورديات ليلية ؟.. نحو ثلاث منها كل أسبوع ؟ »

الحموضة ورائحة الفازلين .. تبًا !.. ما كان يجب أن ... قال (عامر) على الفور :

- « أنا محترف يا سيدى .. لا أختار الزمن ولا المكان الذى أعمل فيه .. »

- « هل تفهم أن هذه المعروضات باهظة الثمن ؟.. أنت لن تعمل على حمايتها من السرقة فقط بل حمايتها من التلف كذلك .. »

- « أفهم هذا يا سيدى .. »

- « هل محل إقامتك يسمح لك بالتواجد فى السابعة صباحًا يوميًا ؟ »

- « رتبت هذا يا سيدى لو ظفرت بالوظيفة .. »

همسات من السكرتيرة ونظرة عابرة إلى ساقه .. فهم على الفور أنها تعترض على عاهته ، لكن (راسم) هز رأسه فى استهانة ، وقال بعربيته الرديئة بصوت مسموع :

ـ « عمله هو التواجد والملاحظة .. لا نريد من يطارد اللصوص أو يتسلق الأسطح .. »

شعر بامتنان لهذه الملحوظة .. بالفعل يمكنه عمل كل شىء ما عدا مطاردة اللصوص ..

تبادل الثلاثة النظرات ثم هز المصرى رأسه معلنًا انتهاء المقابلة ، وطلب منه أن ينتظر بالخارج ..

رائحة الفازلين !!

على الباب قابل رجلاً ممن كانا معه يدخل ... هذا رجل أمن آخر .. يعرفون بعضهم بسهولة .. فيما بعد سيعرف أن اسمه (منصور الفقى) وأنه من البحيرة .. إنه رجل فى منتصف العمر له كرش كبير وجسد مترهل ، لكنه ذلك الترهل القوى الذى يميز المصارعين ..

جلس فى الخارج وبعد دقائق ظهرت السكرتيرة ..

كانت تتعامل بنفاد صبر كأنها تعتقد أنه بدأ مهام عمله فعلاً ..

انتقت ملفًا وضعت فيه أوراقه ، وطلبت بعض أوراق أخرى .. ثم أشارت إلى كومة من القمصان الزرق والسراويل فى ركن المكان وطلبت منه أن ينتقى قياسًا يناسبه ..

بهذه السهولة ؟..

ـ « هل تريدون مسوغات تعيين ؟ »

قالت ضاحكة :

ـ « لا .. نحن لسنا فى الحكومة هنا .. هذا متحف خاص .. فكر فى نفسك كحارس خصوصى لا أكثر .. طبعًا لن تحمل سلاحًا .. سوف تعتمد على حصافتك وقوة شخصيتك .. »

وأخبرته بمهامه بالتفصيل .. كان الراتب مجزيًا على الأقل بالنسبة له .. الحموضة تتزايد برغم هذا ..

بعد قليل ظهر ذلك الرجل (منصور) وقد بدا عليه الرضا .. وبعد قليل ظهر الفتى الثالث الذى سنعرف أن اسمه (رضا أبو جازية) ، ومن جديد عادت السكرتيرة تخبرهم بما قالته من قبل .. إذن جاء ثلاثة وظفر بالعمل ثلاثة ... لا يوجد راسبون اليوم ...

وأخرجت جدولاً سبق أن طبعته فوزعت عليه الأسماء حسب النوبتجيات .. أسوأ ما فى الأمر هو أنها جعلتهم يوقعون على

قائمة بالمعروضات تثبت أنهم تسلموها بحالة طيبة .. حرصوا جميعًا على أن يغيروا من توقيعهم وهم يوقعون على هذه الورقة اللعينة .. فيما بعد لو ادلهمت الأمور سوف يقسم كل منهم مستشهدًا بزميليه أنه لم يوقع على شيء ..

السكرتيرة لم تشك على كل حال :

- « مستر (راسم) إنسان راق مهذب ولكنه كالغربيين لا يرحم الإهمال ولا الاستخفاف بالعمل .. »

ثم نهضت واقتادتهم لتريهم أجزاء المتحف وما فيه من قطع فنية ..

هناك عدة كاميرات مراقبة ، لكن الشاشات فى غرفة (راسم) طبعًا .. فيما بعد سيتم تعيين مراقب للشاشات منهم ، ويتم تخصيص غرفة خاصة له.. لكن ليس الآن ..

لم يكن (عامر) طفلاً .. كان رجلاً واسع الخبرة ، وقد قدر على الفور أن هذا المشروع لن يدوم طويلاً.. إنه إلى فشل وزوال سريعين .. هؤلاء غير محترفين على الإطلاق ، وبالتأكيد لن يحقق مشروع كهذا أى عائد مالى .. سوف يفشلون ويغلقون أبواب المتحف ، لكنهم على الأقل يعطونه فترة هو فى أمس الحاجة إليها إلى أن يجد عملاً حقيقيًا ..

كان اسم السكرتيرة (ليلى).. فى الخامسة والعشرين من العمر.. فتاة جميلة حقًا لكنها حازمة ، ومن الواضح أنها ستكون رئيسهم الفعلى هنا .. هى قررت هذا وهم قبلوه من اللحظة الأولى ..

يجب أن أقول كذلك إنهم خمنوا أنها تهيم برئيسها حبًا .. هذه أشياء لا يمكن تفسيرها لكن حاسة رجل الأمن المخضرم تجعله يشعر بأشياء أو يشمها ولا يستطيع أن يعلل السبب ...

كانت هذه هى بداية (عامر) مع (متحف راسم للآثار الإنسانية) .

- 2 -

لقد أنجبت أمينة .. الصبى (محمد عامر) بصحة طيبة وقد كان سُبوعه أمس ..

الحياة تمضى منتظمة والراتب منتظم كل أسبوع ـ على الطريقة الأمريكية ـ والعمل سهل فعلاً.. سهل لدرجة أنه ممل .. لا شىء يحدث على الإطلاق ، وهذه مشكلة حقيقية .. يقولون إن الذكاء المحدود لا يشعر بالملل وهم فى هذا مخطئون .. إن الذكاء المحدود يعنى أنك لا تستطيع تزجية الوقت بالقراءة أو التفكير فى فلسفة الكون ..

من حين لآخر يتسلل (عامر) إلى الحمام ليدخن لفافة تبغ ثم يعود ..

أحيانًا يتسلى بمراقبة الزوار عندما يأتون .. مثلاً هناك ذلك العجوز النحيل الأصلع الذى راح يطوف بالمعروضات فى ملل حقيقى ، و(ليلى) تتواثب حوله تشرح له كل شىء .. من الواضح أنه غير مهتم لهذه الدرجة .. فى النهاية اتضح أنه على علاقة وثيقة بالمدير .. لقد دخل مكتبه مباشرة وأمضى معه وقتًا لا بأس به ..

هناك ذلك الرجل مريب الشكل الذى دخل ذات مرة وراح يتفحص كل شىء ، ثم فتح الشرفة التى تطل على الحديقة ودخل فيها .. عندما هرع (عامر) ليلحق به وجده يستند على السور وينظر لأعلى كأنه يدرس طوبوغرافية المكان ..

هذه الحركات مريبة ، وتشبه ما يقوم به (الهجامة) عندما يخططون لسرقة بيت .. تفحص كل شىء والاهتمام بالمنافذ والمواسير .. إن لم يكن هذا لصًا فاللصوص لا وجود لهم ..

هكذا هرع (عامر) يستعيد الرجل :

ـ « ممنوع يا أستاذ .. »

لم يكن هناك من جرم اقترف .. الفضول وقاحة لكنه ليس جريمة ، وقد قال الرجل إنه لم يأت بشىء يحرمه القانون .. لم يجد (عامر) سوى أن يقول من جديد :

ـ « ممنوع يا أستاذ .. »

ونظر نظرة نارية للرجل تقول بوضوح : أيها اللص القذر .. تريد أن تدرس المكان لتعود هنا ليلاً وتغتصب بابًا ما وتخرب بيتنا !.. هذه الأمور لن تخدعنى .. أنت لم ترتكب جريمة وأنا لا أستطيع القبض عليك لمجرد الفضول .. لكننا نفهم بعضنا جيدًا ....

كانت نظراته نارية مفعمة بالاتهام حتى إن الرجل عاد للداخل سريعًا ، وراح يتظاهر بالاهتمام العلمى بالمعروضات .. لكنه كلما تلفت يمينًا أو يسارًا وجد (عامر) يرمقه كالصقر ..

هكذا بعد دقائق اتجه للباب مغادرًا ..

راح (عامر) فى ذهنه يرتب أوصاف الرجل ، فهو يعرف أنه سيلقاه ثانية .. جسد ضئيل .. أسمر .. عينان مذعورتان خائفتان .. شعر مجعد .. شارب رفيع كأنه خط بقلم على حافة شفته العليا .. ثياب غير مهندمة .. فأر !... هذا هو أدق وصف ممكن !.. يمكنك أن تتذكر فأرًا وسوف يكون الوصف سهلاً... هذا آخر شخص يمكن أن يهتم بالآثار لكنه بالتأكيد يمكن أن يهتم بسرقتها ...

داعب (عامر) شاربه فى ثقة .. هذه من اللحظات النادرة التى تشعره بأنه يفعل شيئًا مهمًا ويكسر ملل الحياة ..

أحيانًا كان يقابل عشاقًا ...

مثلاً ذلك الفتى وفتاته اللذان يأتيان بغزارة غير متوقعة.. كلاهما صغير السن يصعب أن يهتم بهذه الأشياء ، لكنه كان يراقبهما بعناية وهما يجوبان المعروضات ... مثلاً يتوقفان أمام ذلك الأسد الصغير المحنط ويتهامسان لمدة ربع ساعة .. يسهل أن تعرف أنهما لا ينظران للأسد على الإطلاق .. إنهما غارقان

فى عالمهما الخاص ، فليست مشاهدة المعروضات إلا حلاً للانفراد .. هكذا يمران أمام كل قطعة لا تستحق فيقفان دقائق عديدة ..

كانا لغزًا حقيقيًا .. هل حقًا لم يجدا مكانًا للقاء سوى هذا المتحف ؟.. هل امتلأ الكورنيش وامتلأت حديقتا الأورمان والحيوان ؟ ... لكنهما كانا يدفعان التذكرة ، ولم يتماديا قط .. إذن هو لا يستطيع أن يقول أو يفعل شيئًا ....

أخيرًا كان يجد لنفسه مقعدًا ويجلس .. وينظر لساعته فى جشع متمنيًا أن تقصر الساعات أكثر ...

غدًا سيكون ساهرًا .. هذه نوبتجية قاسية فعلاً خاصة مع الوحدة ، لكنه سينام بمجرد أن يطمئن إلى أن الأمور هادئة .. لا شىء مثل النوم يطوى الساعات سريعًا ...

* * *

فى الحادية عشرة يقوم بجولته فى المتحف .. يهتم بتفقد النوافذ وباب الشرفة .. هناك ستار حديدى على هذه المنافذ لكنه يستوثق من أنها مغلقة. يمر على كل ركن ويتفحصه بضوء الكشاف .. ثم يفتح باب الحمام ويتأكد من أنه لا يوجد أحد .. حيلة الانتظار فى الحمام حتى يرحل الجميع قديمة جدًا لكنها تتكرر بإصرار غريب ، وكل لص يعتقد أنه عبقرى مبتدع ..

إنه لا يبالى بهذه المعروضات ويمكن القول بلا مبالغة إنه لم يلق عليها نظرة متفحصة قط .. فقط كانت المومياء الجالسة القرفصاء تثير الرعب فى نفسه، ولهذا كان يتحاشى التدقيق فيها، لكنه كان متدينًا لذا كان يقرأ المعوذتين كلما مر بها .. وإن وجد عسرًا فى تخيل أن صاحب هذه المومياء الشبيهة بالخشب (جثة) كالتى يراها فى مدافن قريته ..

كان يتفحص المعروضات بسرعة، ثم يتجه إلى مكتب السكرتيرة المفتوح فيجلس خلفه .. يشعل السبرتاية ليعد لنفسه بعض الشاى ويفتح المذياع على أية محطة تذيع أغانى (محمد رشدى) بالصدفة، ويتخفف من ثيابه نوعًا ويلتهم اللقمة التى أعدتها له أمينة ..

بعد هذا سيناااام .. ينام لساعة مبكرة من الصباح حتى يسرع بالنهوض وإزالة آثار السهرة، فلا يجب أن تشعر السكرتيرة بأنه يستخدم مكتبها كغرفة نوم .. دعك من بقايا السبرتاية ورائحتها ..

هكذا وقد فرغ من كل شىء أطفأ الأنوار كلها ونام كعادته ..

عندما نام (عامر) حلم بأشياء غريبة جدًا، والأغرب هو أنه غير قادر على تذكرها .. فقط رأى صارية طويلة جدًا وهناك

نسر يحوم حولها .. هناك ذئب يعوى .. ليس ذئبًا بالضبط .. هو حيوان لا يعرف ما هو ..

ثم فتح عينه ...

فتح عينه فى الوقت المناسب بالضبط .. الساعة البيولوجية الدقيقة فى أجسادنا والتى لم يسمع عنها (عامر) قط لكنها تعمل بدقة ...

هناك من يتحرك فى قاعة العرض ....

إن الظلام بالخارج ليس دامسًا .. هناك مصباح خافت يبعث بعض الظلال وهذه الظلال قد تكسرت للحظة ..

كان قد عاش هذه اللحظة فى خياله مرارًا وعرف بالتقريب كيف سيتصرف.. إنه لا يملك سلاحًا ناريًا لكن معه تلك العتلة الحديدية التى لا يسهر إلا بها وقد وضعها جواره. ذراعه القوية التى تربت على الفأس فى قريته مع العتلة سوف تكون لهما قوة المدافع ...

أحدهم تسلل .. لا تحتاج لعبقرية كى تعرف أنه ذلك الرجل الفأر ..

فيما بعد يمكنك أن تعرف كيف دخل وكيف فتح ذلك الباب الحديدى .. فيما بعد سوف يتكلم كثيرًا جدًا أمام وكيل النيابة، لكنه سيكون مضمدًا فى كل موضع من جسده .. هذا قسم ..

نهض فى خفة وحذر واتجه للباب ...

وقف وسط قاعة العرض فى حذر يتأمل المعروضات الصامتة خلف الزجاج .. لقد رأت كل شىء فليتها تتكلم .. فى مكان ما يوجد متسلل .. وهو حقيقى وليس من ضمن هلاوس الحلم ...

لكن أين ؟

مشى بين المعروضات ..

الأسد الحجرى الآشورى ينظر له وهو يزأر منذ أيام (آشور بانيبال) حتى اليوم ... المزهرية الصينية ... المومياء التى تسد أذنيها ...

من جديد تحرك الظل فى مكان ما ...

المشكلة أنه لا يتحرك أمامه أبدًا إنما عند طرف عينه فقط، فلا يستطيع أن يحدد المكان بدقة ..

هل يطلب الشرطة بالهاتف ؟... لا .. هذا سيكون مخجلاً خاصة لو اتضح أن الفأر هو الفاعل .. سيسخر منه الجميع ...

مشى فى حذر أكثر، وهو يحبس أنفاسه ..

ماذا لو كان هذا المتسلل يحمل سلاحًا ناريًا ؟.. ماذا لو كانوا أكثر من واحد ؟.. العتلة فى يده وهو يعرف أنه مستعد لتحطيم خمسة رجال أشداء بشرط ألا يكون معهم سلاح نارى .. سيكون هذا عبثًا قذرًا بقواعد اللعبة ..

إنه يرى الظل على الأرض ..

هذا الشىء يقف بين المصباح الواهن والممر ...

بالتحديد قرب ذلك العمود المخيف الذى نقشت عليه حيوانات .. يسمونه (الطوطم) وهو عاجز عن نطق هذه الكلمة دون أن يحولها إلى (طماطم) فى كل مرة ...

الشىء يقف هناك ...

لماذا قال (الشىء) ولم يقل (اللص) ؟

السبب كان فى لا وعيه وقد بدأ الآن يخرج للسطح ..

هذا الظل الطويل على الأرض ظل رجل بلا شك .. لكن إذا كان رجلاً فعلاً فلماذا يوجد على كتفيه رأس دب ؟!

كلما نظر للظل أكثر أيقن أنه يرى شيئًا لم يره من قبل ..

فى اللحظة التالية فقد رباطة جأشه فانطلق يعرج نحو غرفة السكرتيرة .. سوف يطلب الشرطة وليسخروا منه كما يشاءون .. إن الأمر جد خطير ..

.. 122

فلترد يا حضرة الصول ..

.. 122

يا أخى رد .. إن الأمر خطير ...

.. 122

قالوا إن الرءوس التى أطارتها المقصلة فى الثورة الفرنسية كانت تتابع الجمهور بعينيها لثوان بعد ما تطير .. هذه فكرة مرعبة بحق ، ولكنها التفسير الوحيد لما حدث بعد هذا ، لأن آخر شىء رآه (عامر) هو قدماه وبلاط الأرضية .. ثم أدرك أن رأسه على الأرض منفصلاً عن جسده ، وأن هذا الشىء معه فى الغرفة ..

وأن ....

اللصّ

- 1 -

- « قليل البخت يلقى العضم فى الكرشة .. »

برغم هذه العبارة التى يرددها دومًا لم يكن (سعيد الشناوى) يعتقد أنه قليل البخت عندما فكر فى سرقة هذا المتحف ..

كان قد كون نظريته الخاصة منذ زمن : هؤلاء حمقى ..

لم يكن مهتمًا بالمتاحف فى حياته إلا لغرض واحد ، ولقد زار هذا المتحف الجديد فأيقن أن من أنشئوه لا يفقهون شيئًا عن تأمين المتاحف .. لا يعرفون حرفًا عن الأمن ..

زاره مرتين أو ثلاث مرات ، وتفقد كل ركن فيه وعرف مواضع الضعف ، فلو كان ذا ثقافة لقال إنه وجد (كعب أخيل) الخاص بهذا المتحف ، لكنه بالطبع لا يعرف من هو (أخيل) أصلاً..

لا يذكر متى ولا كيف وجد نفسه لصًا (هجامًا) يسطو على البيوت . فقط يعرف أنه لم يهتم بالدراسة قط وكان شخصية لا تبالى بالخير أو الشر أو رأى الآخرين فيها .. لو أنه صار خبيرًا تربويًا لاتهم سببًا واحدًا هو (رفاق السوء) وهو دون سواه يعرف أن هذا صحيح فى 99٪ من حالات الإجرام ..

هناك من سيقدم لك السيجارة الأولى .. هناك من سيقدم لك السيجارة المحشوة الأولى .. هناك من سينفق فى بذخ ويسخر منك لأنك لا تملك سوى مصروفك .. هناك من سيصحبك إلى أول ملهى ليلى .. هناك من يورطك فى أول لعبة قمار .. هناك من سيتحداك لو كنت رجلاً أن تأتى معهم هذه الليلة .. وهكذا ....

لن تعرف متى ولا كيف ، لكنك ستجد نفسك واقفًا تتلقى صفعة على قفاك من حين لآخر ، بينما الصول (زينهم) يغمس أطراف أناملك فى السناج من أجل أخذ البصمات .. وفى السجن تبدأ الدورة التى لا نهاية لها ..

- « قليل البخت يلقى العضم فى الكرشة .. »

هكذا كان يردد دومًا وهو يمشى فى فناء السجن ....

لم يعد (سعيد) يهتم بأشياء كهذه أو يذكرها. فقط هو يعرف أنه يبدو كفأر مثير للاحتقار ولا يمكن أن يكسب احترامًا فى أى مجتمع إلا بماله .. هذه العقدة كانت تحرك حياته منذ البداية ..

المتحف هو مكان يعج بالتحف التى خف وزنها وغلا ثمنها ، وهو يعرف كيف يبيع أشياء كهذه .. إن سوارًا قديمًا يساوى ألف جهاز كاسيت من التى يدور بها على تجار المسروقات متوسلاً ..

هكذا زار هذا المتحف ودرسه بعناية ..

حارس واحد فقط ؟... هناك كاميرات لكن لا توجد أيـة علامـة على أن هناك من يراقبها ..

فى الزيارة الرابعة كاد يكشف نفسه فعلاً .. كان المتحف شبه خال إلا من فتاة حسناء تشرح لعجوز نحيل أصلـع غير مهتم . لماذا لم تشرح لك أنت ؟.. لأنك تبـدو كفـأر .. هـذه هـى الإجابـة يا صاحبى ..

هناك شاب وفتاة يتنقلان بين الواجهات ويتهامسان ومن الواضـح أنهما لا يشعران بشىء مما يدور فى العالم حولهمـا. لقد رآهمـا من قبل .. كان بطبعه يمقت الحب ويسخر منه وقـد خطر لـه أن يتسلى عليهما وأن يتلذذ بإهانة الفتى أمام فتاته ، لكن هذا ليس وقته طبعًا .. لقد جاء لأشياء أكثر أهمية ..

دخل إلى الشرفة المفتوحة ، ونظر لأسفل .. هناك شجرة فى الحديقة يمكن أن يتسلقها ويدخل إلى الشرفة ، لكن هل يوجد طابق ثان لهذا المتحف ؟.. من أدراه أنه لا يوجد مخزن يحوى أثمن القطع ؟

هكذا أسند ظهره إلى سور الشرفة ورفع رأسه لينظر لأعلـى ، عندما سمع من يصيح به :

– « ممنوع يا أستاذ ! »

بصراحة أجفل لأنه لم يتوقع هذا أصلاً ...

إنه يعرف هذا الحارس .. أسمر قوى البنية يقظ ملعون .. إنه مصاب فى قدمه ، وأخطر الحراس طرًا هم الذين يشكون إصابة ما ..

– « هل دخول الشرفة ممنوع فى عرفكم ؟ »

لم يجد الحارس ما يقول سوى تكرار :

– « ممنوع يا أستاذ .. »

هكذا غادر الشرفة ، وعاد إلى الداخل وراح يتظاهر بأنه يتأمل التحف فى انبهار ، لكنه من حين لآخر يستدير ليلقى نظرة من خلف كتفه ليجد رجل الأمن يرمقه فى شك .. لقد سقطت جذوة الشك فوق خشب وعيه الجاف ولن تنطفئ أبدًا..

هكذا اتجه إلى الباب وهو يلعن الظروف ، متظاهرًا بأنه غير متعجل للذهاب بتاتًا .. ربما هز ردفيه على سبيل اللامبالاة كذلك ... لكنـه على كل حال رأى ما يكفى ...

– « قليل البخت يلقى العضم فى الكرشة .. »

قالها لنفسه وبصق ...

سوف يجرب حظه بعد يومين ، والسبب هو أن المتحف مغلق يوم الجمعة .. ستكون ليلة الخميس كاملة لـه من دون مفاجآت أو من يأتى مبكرًا جدًا ليفتح الأبواب ..

- 2 -

لم تنجح الخطة فى ذلك اليوم..

كان قد قصد المتحف صباح الخميس ليقوم بزيارة أخيرة لعل بعض التغيرات قد طرأت .. لكنه وجد آخر شىء يتمنى أن يراه : سيارتى شرطة تقفان أمام المتحف وسيارة إسعاف وهناك جو عام من الصخب ..

هناك جسد ملفوف ينقل لسيارة الإسعاف يتعاون مسعفان على حمله ، بينما يقف ضابط على كتفيه عدد لا بأس به من النجوم والنسور يضع يديه فى خصره ويتبادل حديثًا ما مع مدير المتحف ، أما عن داخل المكان فهو سيرك حقيقى يعج برجال الشرطة والمخبرين .

ماذا حدث ؟ .. هل هناك من سبقه إلى السرقة ؟

كاد يتراجع ثم اتجه إلى الحارس الجالس فى كشك التذاكر يسأله عما حدث ، فقال هذا فى غموض :

- « المتحف مغلق .. »

- « أعرف هذا لكن لأى سبب ..؟ »

لم يرد الرجل أن يتكلم .. فقط كرر فى غموض مستمتعًا بجو الخطورة المحيط به :

- « المتحف مغلق اليوم .. يمكنك أن تأتى يوم السبت .. »

هذا كاف على كل حال .. وهو لا يحب أن يقف هنا كثيرًا فلربما تذكر أحد الواقفين ملامح وجهه.. لو كانت جريمة قد وقعت هنا أمس فآخر شىء يتمناه أن يعرفه أحد هؤلاء السادة. سوف يتهمونه بها قبل أن يرتد له طرفه..

- « قليل البخت يلقى العضم فى الكرشة .. »

هكذا ابتعد وقرر أن يجرب حظه يوم السبت ....

وهو ما كان فعلاً.. لقد عادت الحياة لرتابتها المعروفة ، وبدا أن المعروضات كلها سليمة لم تمس .. هى غالبًا محاولة سرقة لم تتم .. والجسد المغطى ؟.. غالبًا اعتدوا على أحد الحراس لكن من ؟

* * *

كعب أخيل ..

فى هذه الحالة كان كعب أخيل هو تلك النافذة الصغيرة فى الطابق الأرضى التى يطل منها الحمام على الحديقة. كل شىء هنا مدعم بأبواب حديدية وقضبان .. هذه ليست مشكلة لكنها تستغرق وقتًا ، بينما هذه النافذة منسية تمامًا .. الأحمق الذى قام بتأمين مداخل المتحف افترض أنها نافذة بلا أهمية ما دامت صغيرة لهذا الحد ..

عالج الخشب المهترئ بالعتلة التى يحملها فسرعان ما انفتحت النافذة كاشفة عن مرحاض وحوض . نظر حوله يتأكد من أن أحدًا لا يراه ثم حشر جسده النحيل عبر النافذة ، وسرعان ما كان يضع قدميه على المرحاض وينزل .. ولم ينس أن يغلقها خلفه .. كان يلبس قفازين طبعًا لأن الشرطة تحفظ بصماته جيدًا ...

دورة مياه نظيفة تفوح منها رائحة المطهرات وتشى بندرة زوار المتحف وحداثة إنشائه. إنها مغلقة بدورها من الخارج لكن من قال إن هناك أخشابًا تصمد أمام العتلة التى يحملها ؟

سرعان ما اغتصب القفل وخرج إلى القسم الخلفى من المتحف الذى صار يعرفه عن ظهر قلب..

هناك حارس ليلى فى مكان ما .. يجب أن يعرف أين هو ويسدد له ضربة قوية على مؤخرة رأسه .. ضربة تكفى لفقدان الوعى لا الموت لأنه لا يريد التورط أكثر ..

كان الظلام دامسًا طبعًا ، لهذا أخرج الكشاف الرفيع الذى يحمله فى هذه العمليات .. يطلق شعاعًا محددًا كأنه بالليزر لا يجلب أنظار الفضوليين ..

نظر إلى الكاميرات المعلقة فى عدة أماكن .. على الأرجح هى لا تعمل ولا أحد يراقبها دعك من هذا الظلام الدامس ، لكنه سيفتش جيدًا للتأكد من أنه ليس هناك من يسجل هذه اللحظات ..

هو يعرف ما يريد ..

أولاً هناك عملات قديمة .. الكثير منها .. سوف يملأ جيوبه بها. هذه الأشياء غالية الثمن دومًا .. ربما يلف السجادة المعلقة على الحائط .. هناك هذا البيض الحجرى المنقوش ... ربما يأخذ الخوذة البرونزية .. هناك بعض الحلى الذهبية كذلك ..

طبعًا ذلك العمود الخشبى كبير جدًا .. غالبًا لن يكون باهظ الثمن كذلك ..

ولكن أين الحارس ؟.. بالتأكيد هناك واحد وهو يرجو ألا يكون ذلك المتشكك الذى ظل يراقبه فى ارتياب. يمشى بين المعروضات فى الردهة الطويلة .. سوف تنتهى مشاكله بمجرد الخلاص من الحارس لأنه قد يكون مزعجًا ...

بالفعل كان هناك .. مكتب السكرتيرة .. إنه مفتوح والرجل بالداخل نائمًا على المكتب .. غالبًا هو الحارس الآخر البدين وليس المتشكك. هذا سوف يسهل الأمور .. رأسه على المكتب وصوت شخيره عال .. سوف يهوى على رأسه بضربة واحدة ليواصل النوم ساعات أكثر ثم ينهى كل شىء .. فى الصباح سوف تأتى سيارات الشرطة من جديد ...

اقترب من المكتب ورفع العتلة ..

كاد يهوى بها ... عندما سمع ذلك الشىء يتحرك خلفه ..

أجفل واستدار ..

هناك فى قاعة المعروضات يمشى ذلك الشىء طويل القامة .. هو يراه فى الظلام فلا يتبين ملامحه لكنه لم يحب ما رآه كثيرًا .. ثمة شىء خطأ ..

عندما دقق النظر أكثر أدرك أنه يرى شيئًا مروعًا ...

فلتذهب السرقة إلى الجحيم .. لابد له من أن يفر من هنا .. هذا المكان مسكون أو يعج بالشياطين ..

هكذا ترك الحارس النائم ووثب إلى الخارج وراح يركض فى القاعة قاصدًا الحمام الذى جاء منه ..

اصطدم بواجهة عرض فتهشم جزء من زجاجها ، وأدرك أنه على الأرجح جرح وجهه بشدة ، لكنه لم يبال .. الجرحى يمكن أن ينعموا بالحياة لكن الموتى لا ينتظرهم سوى القبر الرهيب المظلم ..

من الغريب أن الحارس لم يسمع صوت تهشم الزجاج هذا ..

كان يركض وقلبه يوشك على أن يقفز من فمه ، وعندما رأى الشىء يسد عليه الطريق رفع العتلة وشب على أطراف أصابعه

ووجه ضربة قوية جدًا لهذا الرأس.. تأرجح الشىء لكنه لم يسقط ولم يتراجع ..

ـ « من أنت ؟ »

وأطلق سيلاً من السباب امتزج بالبكاء والدم الذى يملأ فمه الآن .. ثم هوى بضربة أخرى قوية على الرأس المخيف ...

ـ « ما أنت ؟... »

وشعر بما كان يخشاه .. تلك اليد تمسك بساقيه وترفعه بينما اليد الأخرى تمسك برأسه .. إنه يرتفع للهواء .. عاليًا جدًا جدًا .. هذا الشىء قوى بشكل لا يصدق ....

إنه يمد ذراعيه لأعلى وهو يحمله فوق مستوى رأسه كأنه مصارع ينوى أن يلقى خصمه فوق الحبال ...

أطلق صرخة ذعر وقد فهم ما يحدث ..

فهم ما سيحدث ..

إن الشىء يضغط عليه بقوة بحيث يتقوس ظهره فى اتجاه مستحيل .. هو معلق فى الهواء وظهره ينضغط وينضغط بقوة لا يمكن وصفها ... هذا الشىء يفترض أنه عود من قصب السكر يحاول ثنيه على نفسه ...

قال لنفسه وهو يرى العالم من وضع أفقى :

ـ « حتى لو حطم ظهرك ستعيش مشلولاً .. لن تموت ! .. »

الحق أنه كان يحتفظ بنفسية الفئران التى تعتبر الحياة بأية صورة كانت مكسبًا لا بأس به ..

هوى بالعتلة مرة أخيرة على الرأس لكنه كان قد صار فوق مستواه ، دعك من أن وهنًا غريبًا منعه من أن يضرب بقوة ...

ـ « قليل البخت يلقى العضم فى الكرشة .. »

قالها لنفسه للمرة الأخيرة قبل أن يسمع صوت التهشم ...

الطبيب

- 1 -

لن أتخلص من هذا الرجل أبدًا ...

كنت قد أزمعت ألا أسمع ثانية عن (راسم) ، وكنت صادقًا فى العهد الذى قطعته لنفسى ، لهذا لم أتوقع قط أن هذه المكالمة الهاتفية المزعجة تخصه ..

ترررررررررررررن !

تتقافز الأكواب ويرتج الأثاث ويتحطم زجاج النوافذ ، بينما أركض أنا بوجه غطاه صابون الحلاقة نحو ذلك الجهاز الكريه وغرضى أن أخرسه بأى شكل ..

- « ألو ؟ »

- « د. (رفعت).. أنا (راسم أبو سيف) . »

كالعادة بدا لى الاسم غريبًا ملفقًا ، لكنى لم أستطع تذكر متى سمعته أول مرة ..

- « (راسم) من ؟ »

- « (أبو سيف) .. لا أعتقد أنك نسيت موضوع المتحف .. »

فى النهاية تذكرت .. هذا الرجل مستمر للأبد كالبعوض ..

- « هل يضايقك أن تشرفنا بعض الوقت فى المتحف ؟ »

- « الحقيقة هى أننى مشغول .. ثم إن مشوارك هذا ... »

قال بلهجة لا تقبل الاعتذار وفيها خطورة واضحة :

- « أرجوك .. الأمر مهم فعلاً .. أنا بانتظارك فى أى وقت اليوم .. »

وضعت السماعة الملوثة بالصابون ورحت أمسحها بمنديلى وأنا أفكر .. ما دورى فى هذه القصة وأنا قد اعتذرت مرارًا عن أن يكون لى دور فيها ؟

لابد أن أرى .....

* * *

السكرتيرة الحسناء التى عرفت أن اسمها (ليلى) كانت بانتظارى هناك ، وقد عرفت وجهى على الفور فلم تضيع وقتى فى شرح المعروضات كالعادة .. هذا دور لن تقوم به للأبد لو ازدحم المتحف . إنها فقط متحمسة فى البداية وستتعب سريعًا ..

تقدمتنى نحو مكتب المدير بين واجهات العرض ..

هناك واجهة محطمة ولكنهم قاموا بتنظيف الزجاج . إذن الأمر يتعلق بمحاولة سطو على الأرجح . استطعت أن أرى ذلك الفتى والفتاة اللذين لا يجدان مكانًا للقاء سوى هذا المتحف

العجيب ، وكانا يقفان أمام مومياء المايا تلك يتهامسان . لو كنت رائق الباب لقلت فى حكمة : صاحب هذه المومياء كان مثلهما يومًا ، وكان يعشق ويحلم بحبيبته .. اليوم هو مومياء يقف أمامها العشاق ناسين أنهم سيكونون مثله يومًا ..

وارتجفت لما تخيلتهما موضوعين فى واجهتين وقد جلسا القرفصاء ، ووضع كل واحد قبضتيه على أذنيه .. الحمد لله أننا لا نمارس التحنيط حاليًا . من حق الميت أن يعود للتراب بدلاً من أن يصير تسلية للمتفرجين ..

مكتب (راسم).. تدق السكرتيرة الزجاج مرتين ثم تفتح الباب ..

(راسم) ينهض لاستقبالى .. أكاد أقسم أنه شاخ قليلاً... وجه مرهق متعب وكتفان أميل للانحناء. يبدو أن إدارة المتاحف مرهقة فعلاً.. أو هو أدرك أن اللعبة أكبر منه ..

جلس على مقعد (أنتريه) ليكون بجوارى ووضع ساقًا على ساق بتلك الطريقة الأمريكية التى تغيظنى ، حيث تجد حذاء من يكلمك فى وجهك ، لكنهم لا يعتبرونها قلة ذوق ..

قال لى :

ـ « كيف الحال ؟ »

ـ « كما ترى .. أعتقد أننى الأجدر بالسؤال .. »

ابتسم ابتسامة باهتة ، وهنا دخلت السكرتيرة لتقف معنا فى الغرفة باعتبارها أحد أطراف المحادثة .. توقعت فى تلذذ أن يقول لى إنه فى ورطة مادية وإنه لا يكسب شيئًا ، وإنه يرغب فى العثور على مشتر للمتحف كما هو .. عندها سأقول له فى برود :

ـ « حساب المكسب والخسارة ليس كل شىء فى العالم .. هل تذكر من قال هذا يومًا ما ؟ »

مد يده للسكرتيرة دون أن ينظر لها فوضعت فى يده مظروفًا ناوله لى .. مددت يدى داخل المظروف لأجد صورًا فوتوغرافية .. صورًا بالأبيض والأسود لم أتبين ما بها إلا عندما دققت أكثر ..

اعتدلت فى جلستى بما يناسب ما رأيت ..

المشهد الأول يمثل رجلاً يلبس قفازين فى يده ، وقد انثنى ظهره إلى الخلف بطريقة لا يمكن أن تجدها فى كائن حى .. الذين قتلتهم الشياطين فى القرون الوسطى كانت أعناقهم تلتوى للخلف ، لكن هذا المشهد فريد ..

هناك لقطة أقرب لوجهه المذعور ، وقد بدا على جبينه جرح قطعى ....

رفعت رأسى فى دهشة فقال لى أن أواصل المشاهدة ..

الصورة الثالثة كانت تظهر جسدًا .. نعم .. هو جسد بالمعنى الحرفى للكلمة لأنه لا يوجد رأس .. الصورة الرابعة تظهر الرأس ممزقًا ينظر لى نظرة خاوية. لكن .. أنا أذكر هذا الوجه .. هذا رجل أمن يعمل فى المتحف .. أنا رأيته فى زيارتى الأولى .. أسمر قوى البنية بادى اليقظة ...

قال (راسم) وهو يمسح وجهه :

ـ « الجثة التى يبدو أن أحدهم حاول أن يثنيها نصفين ليدخلها من تحت الباب ، هى جثة عرف رجال الشرطة صاحبها .. (سعيد الشناوى) .. لص منازل . أو ما يسمونه .. هـ .. هـ .. »

ـ « هجام .. »

هذه كانت من السكرتيرة طبعًا ..

ـ « نعم .. نعم .. هجام .. تسلل إلى المتحف ليلاً من نافذة الحمام .. لا نعرف ما حدث .. فقط الحارس الليلى (منصور الفقى) اعترف بأنه كان نائمًا وأنه استيقظ ليجد هذه الجثة جوار باب الحمام .. يبدو أنه كان يحاول الفرار عندما هوجم بهذه الطريقة .. »

قلت فى استنكار :

ـ « هوجم ؟.. لو كان المهاجم (كينج كونج) لما أحدث كل هذا الأثر .. »

لم يعلق لكن السكرتيرة تدخلت فى الكلام .. متضايق أنا من أهميتها الزائدة وتدخلها فى كل شىء ، لكنى أعتقد أن (راسم) يسمح بهذا لأسباب لا تتعلق كلها بضعف لغته العربية .. إنها تلعب دور الشريك الكامل فى المتحف .. ثم إنها متحمسة له أكثر من اللازم .. حماسها يتجاوز الاهتمام المهنى إلى آفاق أرحب ..

قالت وهى تشير لباقى الصور :

ـ « الثانى مقطوع الرأس هو رجل الأمن (عامر) .. لقد وجدناه صباحًا منذ يومين بهذه الصورة ولا نعرف على الإطلاق ما حدث ولا من كان يطارده .. فقط كانت سماعة الهاتف مرفوعة وهو على الأرض فى مكتبى .. لابد أنه رأى شيئًا فحاول طلب الشرطة لكنه لم يستكمل هذا .. »

قلت وأنا أتفحص الصورة :

ـ « هذه المرة يبدو كأننا بصدد ديناصور .. »

ـ « لست بعيدًا عن الحقيقة .. يقولون إن عنقه قضم من موضعه .. لا يوجد أثر آلة حادة كسكين أو مدية .. »

ـ « وتلك الدائرة التلفزيونية باهظة الثمن .. ألم تلتقط صور ما يحدث ؟ »

ـ « لابد من وجود من يراقب الشاشات وهو ما لا يحدث ، دعك من أننا لا نسجل أحداث الليل.. لقد قمنا بتركيب الدائرة على أمل أن نفيد منها عندما تتحسن الأمور ، لكن لا نفع منها فى الوقت الحال .. »

تنهدت وأعدت لها الصور الرهيبة ، وسألت (راسم) لأتجاهلها :

ـ « والشرطة ؟.. ما رأى رجالها ؟ »

قال (راسم) وكأنه أفاق من نوم طويل :

ـ « دهشة .. حيرة .. لا أكثر ولا أقل .. لا توجد أية علامات على من فعل هذا .. هناك من تسلل ليلاً وقتل الحارس مرة ، ثم قتل اللص مرة مشكورًا لكننا لا نعرف من هو ولا كيف دخل .. لاحظ أن من يحدث كل هذا الأثر ليس رجلاً عاديًا .. إنه سفاح مخبول وبالإضافة لهذا يملك قوى هائلة .. »

سفاح مخبول يملك قوى هائلة ...

أحتاج لوقت كى أستوعب هذا ..

ـ 2 ـ

لهذا طلبنى (راسم) ...

لقد قال لنفسه : ما دام هذا العجوز المخبول لا يصلح للإشراف على المتحف ، فليرنا بعضًا من خبراته التى يتكلمون عنها ..

السؤال الأول هو : من فعلها ؟... من الممكن أن تلقى علامات الاستفهام على ذلك الحارس الآخر (منصور) .. ربما هو فتك باللص وفتك بزميله الذى رفض أن يقرضه لفافة تبغ ، لكن تبقى حقيقةً أنك لا تستطيع أن ترتكب جريمة بهذا العنف مهما حاولت .. حتى لو اجتمع ثلاثة رجال ففعل هذا صعب ويحتاج لقوة بدنية هائلة ..

السؤال الثانى : لو فعلها بشرى فلماذا يقتل بهذا العنف المبالغ فيه ؟

كلما فكرت فى الأمر بدا لى ذا طابع خوارقى لا شك فيه ..

قوة القتل وعنفه لا توحيان بيد ولا نفس بشرية .. بالفعل كنت دقيقًا عندما تحدثت عمن قتلتهم الشياطين فى كتب سحر القرون الوسطى .. ربما شممت رائحة الكبريت لو كان أنفى أصغر سنًا ..

يوحى الأمر بأن هناك حارسًا لا ينتمى لعالمنا يسهر على هذه المعروضات .. حارسًا يشبه ذلك المكلف بحراسة المقابر الفرعونية عندنا ، لكن لماذا يقتل الحارس حارسًا مثله ؟.. بالنسبة له هو زميل عمل حتى لو لم يكن من نفس العالم .. المفترض أن يتبادلا هزة رأس على سبيل المجاملة ويجلسا لشرب الشاى ..

على كل حال كان (راسم) واضحًا : هو لا يريد شوشرة .. لا يريد أن يذيع هذا الخبر ..

كنت أعتقد العكس ... دع الناس يعرفوا أن هناك جرائم قتل شنيعة وقعت فى هذا المتحف ليلاً ولسوف يزدحم المتحف ولا تجد موضعًا لقدم .. هذه طبائع الأمور ..

لكن (راسم) كان مصرًا على أن الجثث المهشمة لا تليق بمتحف محترم ..

لقد جاء رجال الشرطة وفحصوا كل شىء ، ولسبب ما غفلت الصحافة عن هاتين الجريمتين .. لا مزيد من الضوضاء من فضلك ..

رحت أجوب المتحف وعيناى تتفحصان كل شىء ...

التقت عيناى بذلك الحارس الثالث (رضا) على ما أذكر ، فهز رأسه محييًا وقد فهم أننى شخص مهم ما دمت قضيت فى مكتب المدير كل هذا الوقت ...

لو تركت لنفسى سعة التفكير لقلت إن الواجهة المحطمة هى مفتاح حل اللغز .. لماذا تحطمت ؟...

ماذا يوجد خلفها ؟.. مومياء المايا الجالسة . إن لى قصصًا مرعبة مع حضارة المايا ليست أسوأها قصتى مع ملك الذباب (رى دى موسكاس) ورجال قرية أريزونا الذين تحولوا إلى حشرات فى ظروف غامضة ... هناك قصص أخرى لم أحكها ، لكن لدى ما يدعو للاعتقاد بأن الاحتفاظ بمومياء من هذه الحضارة أمر خطير فعلاً ...

لكن ما دام الزجاج مهشمًا فكيف غادرت المومياء مكانها ؟... لابد من فتحة تسمح بذلك والزجاج المحطم لا يسمح إلا بمرور كرة قدم صغيرة . دعك من أنها مومياء نحيلة واهنة يمكن أن تتفكك لو خضت معها صراعًا جديًا .. ثم ...

ما هذا الكلام الفارغ ؟

هأنذا أقف أمام تلك المومياء أحاول أن أثبت لماذا لم تفعل ذلك !.. لابد أننى جننت !

بالطبع يمكن استبعاد عمود الطوطم .. هذا مجرد نصب تذكارى . كذلك يمكن استبعاد الآنية والسجاجيد .. هذه أشياء لا تقدر على تمزيق عنق إنسان ..

أسد محنط ؟.. هناك علامات استفهام تدور هنا .. العنق انتزع بأنياب حادة .. لكن كيف ؟..

الخوذة ؟.. لم أسمع عن خوذة شرسة إلا فى قصة (قلعة أوترانتو) لـ (والبول Walpol) ..

* * *

كنت فى مأزق حقيقى ..

لا يمكن تصور أن إنسانًا أو مجموعة بشر قاموا بهذه الأعمال ..

فى الآن ذاته لا يجب أن نقبل مقولة إن شيئًا شريرًا خارقًا للطبيعة يعيث فسادًا فى المتحف ليلاً ..

لن أندهش لو كان ذلك صحيحًا .. لقد رأيت ما هو أسوأ .. المشكلة أنك لا تصل لاستنتاجات كهذه قبل أن تفرغ من باقى الاحتمالات ..

قلت لـ (راسم) بعد ما فرغت من استعراض أفكارى أمامه :

ـ « طبعًا هناك حل واحد ، وهو أجهزة الكاميرا المتناثرة فى المتحف .. حان الوقت كى تنتفع بثمنها .. يجب أن تشغلها ، وأن يكون هناك من يراقب الشاشات ليلاً .. »

ـ « ولكن من ؟ »

ـ « هذه مشكلتك .. ليس أنا بالتأكيد .. أنت ترى ويمكنك أن تجد من يقبل السهر محدقًا فى هذه الشاشات من مكتبك .. »

سألتنى السكرتيرة فى نوع من التحدى :

ـ « ومن قال إن هذه الأحداث ستتكرر ؟.. من قال إنها ستصير عادة ؟ »

قلت فى سماجة :

ـ « لا أحد يضمن أى شىء .. قد لا يحدث شىء للأبد وقد يحدث هذه الليلة .. ما أعرفه هو أنكم قلقون .. معنى هذا أن احتمال التكرار قائم ، ولهذا عليكم أن تدرسوا الاحتمال جيدًا .. »

ثم رسمت على وجهى ملامح الخبير :

ـ « على قدر علمى ، فإن فترة شهر كافية جدًا للحكم على أية ظاهرة .. إما أن تحدث أو لا تحدث أبدًا .. لدينا حادثتا قتل بينهما أربعة أيام .. لو لم تقل لى إن رجال الشرطة غير مهتمين بالأمر وإن هناك من يراقب المتحف بعناية ، لاتهمتك بالمبالغة أو اتهمتهم بالتقصير .. »

فكر (راسم) قليلاً ثم نظر للسكرتيرة ، وقال :

ـ « ليكن .. هل يمكنك أن تخبرى (مأمون) ؟ »

قالت وهى تراجع بعض الأوراق :

ـ « مشغول .. يمكن أن نطلب (عاصم) .. إنه سيحب هذا العمل الليلى .. »

قلت لهما وأنا أنهض :

ـ « لو سجلت الكاميرا شيئًا فلسوف يكون رهيبًا .. إما أن نرى كيانًا شيطانيًا يتحرر من مكمنه .. ربما تنهض تلك المومياء وتجول فى المتحف وهى تعوى كالذئاب ، وإما أن نرى ما هو أفظع .. نرى مجموعة من القتلة يمزقون إنسانًا مثلهم ... فقط لنبق على اتصال .. »

ثم تذكرت شيئًا آخر أكثر أهمية :

ـ « بالمناسبة .. أرجو أن تدعم النوافذ بقضبان حديدية .. لا نريد من يتسلل عبر الحمام كما المرة السابقة .. »

نظر للسكرتيرة فقالت بسرعة :

ـ « اطمئن .. قمنا بذلك فعلاً.. لا توجد طريقة لاقتحام هذا المتحف إلا من الداخل .. »

هذا يجعل الأمور أكثر إحكامًا ..

المهم أن نعرف ما سيراه الأخ (عاصم) الذى يحب العمل الليلى ...

لو حدث شىء فلسوف يكون مخيفًا ...

الجبان

- 1 -

لم تكن (فاتن) تحب (سليم) على الإطلاق ..

لقد عملت كثيرًا بعد حصولها على الدبلوم ، وعرفت كيف تفهم صاحب العمل منذ النظرة الأولى .. كثير منهم يعتبر الفتاة العاملة لديه فى المحل (ما ملكت أيمانكم) على الفور ، ويبدأ فى محاولة الإيقاع بها .. هو لا يصدق أنها تعمل عنده وتتقاضى راتبها منه وبرغم هذا لا تقبل تودده وتقربه منها .. هذا يثير جنونه ...

كان (سليم) من هذا الطراز .. فهمته منذ اللحظة الأولى ، لكنه كان يقدم لها عملاً وهى بحاجة لعمل بشدة ...

كان متزوجًا وفى الأربعين من عمره ، وكان بدينًا له لغد عملاق وعينان مجنونتان تطلقان شررًا .. ولئن كان يعتبر نفسه جذابًا فهذا شأنه ، لكن لا تفرض على رأيك من فضلك .. الأمر يشبه الرجل قبيح الصوت الذى يغنى فى الحمام .. هذا شأنه .. إلى أن يقرر الصعود إلى المسرح وأن يمسك بالميكروفون ..

كانت تتحاشى (سليم) وتتظاهر بأنها لا تفهم ، وكان هو يزداد غلظة .. لهذا قررت أن أيامها فى هذا العمل محدودة ، وهذا جعلها أكثر تحفظًا وخشونة معه ..

كان عملها يتلخص فى أن تقف فى متجر البقالة الصغير هذا وتجلب للناس ما يريدون . ثم تتجه إلى (سليم) الجالس كالسلطان خلف (الكاونتر) لتخبره بما أخذه الزبون وهو يجرى عملية الجمع ، ثم يأخذ المال من الزبون ويعيد له الباقى قائلاً :

- « شرفت .. »

ما كان ليقولها لو لم تكن تعنى مالاً قد يأتى فى فترة قادمة ..

فى هذه الفترة ظهر (عمر) ...

كان شابًا نحيلاً مفعمًا بالأحلام والآمال .. طلب زجاجة من الكولا المثلجة وتحسسها ليتأكد من أنها مثلجة فعلاً ثم ابتسم ..

إن الإنسان غريب فعلاً .. حركة تافهة كهذه بلا معنى بدت لها فاتنة ساحرة ، ولسبب ما وقعت فى حبه ...

أخبرها أنه يعمل بائعًا فى متجر كهربائى قريب. إنه حاصل على الدبلوم مثلها ولم يظفر بعمل .. كان هذا هو العمل الوحيد أمامه ..

- « هل من شىء آخر يا أستاذ ؟ »

قالها (سليم) الذى بدأ يشعر بأن جاريته تفكر فى اتجاه مختلف ، فأجفل الفتى وهرع يدفع ثمن ما شربه ..

عرفت عندها أنها لن تكون زيارته الأخيرة ..

منذ ذلك اليوم ، صار الفتى مَعْلَمًا يوميًا دائمًا من معالم المتجر .. تنتظره عندما يأتى .. ينتقى زجاجة المياه الغازية . يتحسسها ليتأكد من أنها باردة ثم يبتسم ويشرب ويدفع الثمن بعد ما يتبادل معها ثلاث أو أربع جمل ..

بعد أسبوع صار يبتاع أشياء عديدة لزوم غدائه ، وهذا كى يطيل فترة الحوار معها ...

أدركت أنها تحبه .. كما أدركت من قبل أنها تكره (سليم) للغاية ..

هكذا كانت المحادثات تدور بينهما بأسلوب البرقيات .. فى يوم من الأيام مثلاً :

ـ « لا أحب عملى .. إنه ممل ، لكنه لم يعد كذلك .. هل تعرفين السبب ؟ »

ثم بعد يومين :

ـ « السبب هو أنك هنا .. أنا وحيد بلا أصدقاء ولا إخوة .. لكنى صرت محظوظًا . »

ثم بعد يوم :

ـ « وأنت ؟.. هل لك إخوة ؟ »

بعد ثلاثة أيام ترد :

ـ « لى أخوان أصغر سنًا .. هناك أخت فى المدرسة الابتدائية .. أبى ... »

ثم بعد يومين تقول :

ـ « أبى توفى منذ خمسة أعوام .. »

بعد يومين يقول لها :

ـ « هذا محزن .. أفهم .. لهذا صرت أنت رجل الأسرة المكلف بعنايتها .. هل أمك بخير ؟ »

بعد أربعة أيام تقول :

ـ « نعم .. هى بخير لكن الكفاح أرهقها .. »

فى النهاية بعد أسبوع قال لها :

ـ « لابد أن ألقاك بعيدًا عن هنا ، حيث لا يوجد غراب يراقبنا .. »

بعد يومين قالت له :

ـ « هذا صعب .. ربما عند الظهيرة لأننى أذهب لشراء غداء لى ... »

ثم بعد يوم :

ـ « إلى أين ؟.. ليس حديقة الحيوان أو الهرم لأن هذا معناه ضياع اليوم .. »

بعد أربعة أيام قال لها :

ـ « أعتقد أننى أعرف مكانًا مناسبًا .. »

المكان المناسب الذى اختاره كان متحفًا جديدًا قريبًا من هنا... مكان هادئ جميل وحديقة غناء أنيقة ، وأشخاص لا يتدخلون فيما لا يعنيهم ..

باختصار اختارا أن يلتقيا فى (متحف راسم للدراسات الإنسانية) .

- 2 -

هذا هو ما استطعت أن أنسجه مما عرفت عن القصة فيما بعد ..

هناك الكثير من التفاصيل عن علاقة هذين وحبهما الوليد ، لكننى لست مهتمًا بتحويل هذه القصة إلى رواية عاطفية حزينة .. فقط أحاول أن أضعك فى الجو وأخبرك بخلفيات هاتين الشخصيتين ، كما يقول (سومرست موم) إنه يمقت الرواية البوليسية التى تبدأ بجثة .. لابد أن تعطيه بعض الوقت كى يعرف هذه الجثة جيدًا قبل أن تصير كذلك ويتآلف معها .

لهذا يمكن أن أقول على الفور إن الشابين اعتادا على اللقاء فى المتحف الجديد .. تذكرة ليست باهظة الثمن ، ومكان جميل .. يمضيان هناك نحو نصف ساعة من الكلام الهامس ثم يرحلان ..

فقط فى المرة الأولى درسا المعروضات جيدًا .. وجدت الفتاة فرصتها كى تشهق فى رعب عندما رأت المومياء ، ووجد هو فرصته كى يبدى شجاعته كأنه يلتهم عشر مومياوات يوميًا قبل الإفطار .. فى سلوكه صبيانية واضحة ولسان حاله يقول : دعى هذا الأبله يضايقك ولسوف أمزقه إربًا .. مومياوات ؟.. نحن لا نبالى بهذا الهراء !

كذلك وجدت فرصتها فى إبداء إعجابها بمومياء الأسد الصغير .. قالت أشياء على غرار (يا ختي قميلة) وما إلى هذا بينما ابتسم هو فى استخفاف .. الرجال حقًا لا يهتمون بالأسود الصغيرة ..

انتهى شغفهما بالمتحف بعد نصف ساعة ، وحاولت السكرتيرة أن تشرح لهما تاريخ هذه القطع لكنها أدركت أنهما لا يباليان بشىء هنا ..

صار وجهاهما مألوفين وصار من يقطع التذاكر يبتسم فى فهم عندما يراهما. يدخلان المتحف ويجولان بين واجهات العرض وهما يتهامسان بلا توقف .. لابد أنهما رسما خطة المستقبل كاملة .. لابد أنهما وصلا إلى الطفل الرابع أو الخامس ....

عرفا الحراس الثلاثة وعرفا الزوار المنتظمين هنا ..

هناك حارس تفوح منه رائحة التبغ اسمه (عامر) ويتمتع بيقظة غير عادية ، وقد كان هناك رجل ضئيل الجسد مريب الشكل يتردد بانتظام على المتحف مثلهما .. لهذا استلفت نظر الحارس ، وذات مرة لحق به فى الشرفة ليعيده إلى الداخل فى حزم .. الحق أن منظر الرجل لم يكن بريئًا على الإطلاق ..

عندما يدخلان هما الشرفة ليتكلما وهما يرمقان الحديقة الغناء ، لم يكن الحارس يضايقهما .. فقط كان يمر ليلقى نظرة عابرة من حين لآخر ثم يواصل مسيرته ..

المدينة تعادى الحب وتعتبره صرصورًا يجب أن يُسحق بالحذاء ، لكن ليس فى (متحف راسم للدراسات الإنسانية). ربما يمكنك التفكير فى الأمر على أنهما أثر آخر من آثار البشرية لهذا تركهما المسئولون عن المتحف.. الحب .. عادة بشرية قديمة توشك على أن تنقرض مثلما انقرضت تلك الحضارة التى صنعت هذا العمود الخشبى المخيف ، ويومًا ما بعد ألف سنة سيقف السياح ينظرون لهما ويلتقطون الصور بينما يقول المرشد : « هذان حبيبان .. منذ ألف سنة سادت عادة غريبة هى أن يلتقى فردان من جنسين مختلفين ويتهامسان وينظران للشمس الغاربة والقمر ، وربما يسمعان الأغانى كذلك !.. لم يستطع علماؤنا معرفة سبب هذه العادة الغريبة ولا الهدف منها ، لكن يعتقد أنها كانت مقدمة طقوسية لتكوين ما يعرف بالأسرة .. » تدوى شهقات الانبهار ويلتقط السياح سيلاً من الصور ..

سألته (فاتن) ذات مرة بطريقة لا مبالية :

ـ « ما هذا العمود الحجرى الطويل ؟ »

نظر له وللمرة الأولى يبدو أنه لاحظه .. على طريقة الذكر الذى يجب أن يملك إجابة عن كل شىء قال لها :

ـ « ربما هى سارية علم .. »

ثم اقترب ليقرأ المكتوب على البطاقة الصغيرة :

ـ « طوطم .. من آثار قبيلة (أوجيبوا) الهندية علّى الحدود الأمريكية الكندية. ويعد مثالاً ممتازًا لعقيدة الطوطم التى مارستها كل الشعوب البدائية فى حقبة ما .. »

قال فى سخرية :

ـ « طوطم .. اسمه طوطم !.. ربما كانوا يضعونه فى حقول الطماطم .. »

لم تبد مهتمة بالأمر ولا الضحك للدعابة .. لقد وجهت السؤال ولم تسمع الإجابة كما نفعل جميعًا ..

كانا يتكلمان بينما مر جوارهما رجل عجوز أصلع الرأس نحيل بشكل لا يصدق ، وكان نافد الصبر يصغى للسكرتيرة التى تحدثه بلا توقف عن كل قطعة .. من الواضح أنه يتعجل الانتهاء ..

قالت (فاتن) فى شىء من القسوة :

ـ « هذا الرجل يصلح للعرض هنا .. يبدو أثرًا لا شك فيه ! »

قال الفتى :

ـ « هو كذلك مُهم كما يبدو .. انظرى !.. إنه يتجه لمكتب المدير مباشرة .. على كل حال لقد حان وقت الانصراف .. يجب أن نعود قبل أن يسألوا عن مكاننا .. »

ثم قال فى نفاد صبر :

ـ « لقد سئمت هذا المكان .. ماذا عن الذهاب للسينما ؟.. هناك فيلم هندى ممتاز .. »

فى هذا العصر كانت الأفلام الهندية هى ذروة ما يُعرض فى دور السينما ، وكانت فرصة ممتازة للتطهر .. ثلاث ساعات من المطاردات والغناء والرقص ثم يكتشف الابن أن أمه ما زالت حية ويعود لها وينفجر الكل فى البكاء .. كلما بكيت أكثر كان الفيلم أفضل .. تجربة ممتازة لهؤلاء الذين يملكون بالونًا هائلاً من الأحزان يحتاج إلى لمسة كى ينفجر ..

قالت له فى رعب :

ـ « مستحيل .. ثلاث ساعات كاملة !.. هل جننت !... »

ـ « وهل سنبقى فى هذا المتحف إلى الأبد ؟ »

ـ « لا يوجد حل آخر .. »

* * *

على أنهما فشلا فى زيارة المتحف فى المرة التالية برغم أنهما جاءا مبكرين هذه المرة ، لأنه كان مغلقًا وكانت هناك سيارات شرطة وضباط وعربة إسعاف .. يبدو أن هناك سطوًا قد

حدث فى الليل ، وقال لهما الحارس الذى يقطع التذاكر إن بوسعهما المجىء يوم السبت ..

فى المرات التالية لاحظا أن ذلك الحارس (عامر) لم يعد هناك ، وقد سألا أحد الحراس عنه فقال فى تأثر :

- « تعيش انت ! »

كان خبرًا قاسيًا وبرغم أنهما لم يتعاملا معه بما يكفى ، فقد كان رجلاً مهذبًا .. حاولا تذكر وجهه الصارم الطيب الأسمر ، لكن صور المتوفين تبهت على الورق وفى الذاكرة ... الحارس بدا غير راغب على الإطلاق فى ذكر تفاصيل أخرى ...

هكذا التقيا فى يوم آخر .. من الغريب أنهما وجدا سيارة إسعاف تغادر المتحف .. هل هذا متحف أم مستشفى ؟..

ثمة أشياء غريبة تحدث ..

* * *

سأكون مختصرًا ....

بما أننا نعرف أننى توجهت لزيارة الفتاة فى المستشفى بعد هذا بثلاثة أيام ، فإننى سأعفيك من شرح القصة بلسانى .. هى أقدر على الشرح وأكفأ ...

كنت قد فرغت من فحص جثة الفتى مع الطبيب الشرعى فى المشرحة ، وكان رأيه أن ما حدث جنون .. لا يمكن أن يكون أحدهم قد طعن الفتى بمثقاب فى مخه وعينيه بهذه القوة وهذه الشراسة ، لكن باقى الجروح توحى بأن المهاجم استعمل خنجرًا مدببًا ..

لم أكن متأهبًا لرؤية ما رأيت ، وقد بحثت فى ذهنى عن ذكرى تماثل هذه بشاعة ، لكننى لم أستطع برغم أننى رأيت 78654463 جثة فى حياتى إن لم أكن قد نسيت بعضها ..

لاحظ الرجل أننى غير متزن وأننى أتنفس بصعوبة فقال وهو يغسل يديه :

- « نعم .. مهنة قذرة هى لكنك تعتادها فتحبها .. واضح أنك لا ترى الكثير من الموتى.. »

- « بالعكس ... أرى الكثير من الموتى ، لهذا أندهش جدًا عندما أرى جثة كهذه .. »

ثم كررت سؤالى :

- « إذن أنت لا تعتقد أن إنسانًا فعل هذا ؟ »

قال فى استنكار :

- « ومن يفعلها إن لم يكن إنسانًا ؟... فقط هو شخص قوى .. قوى لدرجة لا تصدق .. هل لك فى بعض الشاى ؟ »

سألنى وهو يصب الشاى فى كوب زجاجى متسخ كبير ، فهززت رأسى نافيًا .. أحيانًا أستشعر فى سلوكه هذا نوعًا من الاستعراض الصبيانى ، كما كنا نمسك بالضفادع ونقبّلها فى قريتى كى نخيف الفتيات ، وليرين كم نحن أشداء ..

هكذا اتجهت للمستشفى ، وطلبت رؤية الفتاة ..

بالطبع كانت هناك حراسة على العنبر ، وقد خصصوا لها غرفة صغيرة لتسهل مراقبتها ..

كانت معصوبة العينين طبعًا بعد ما أصاب عينيها من أذى ..

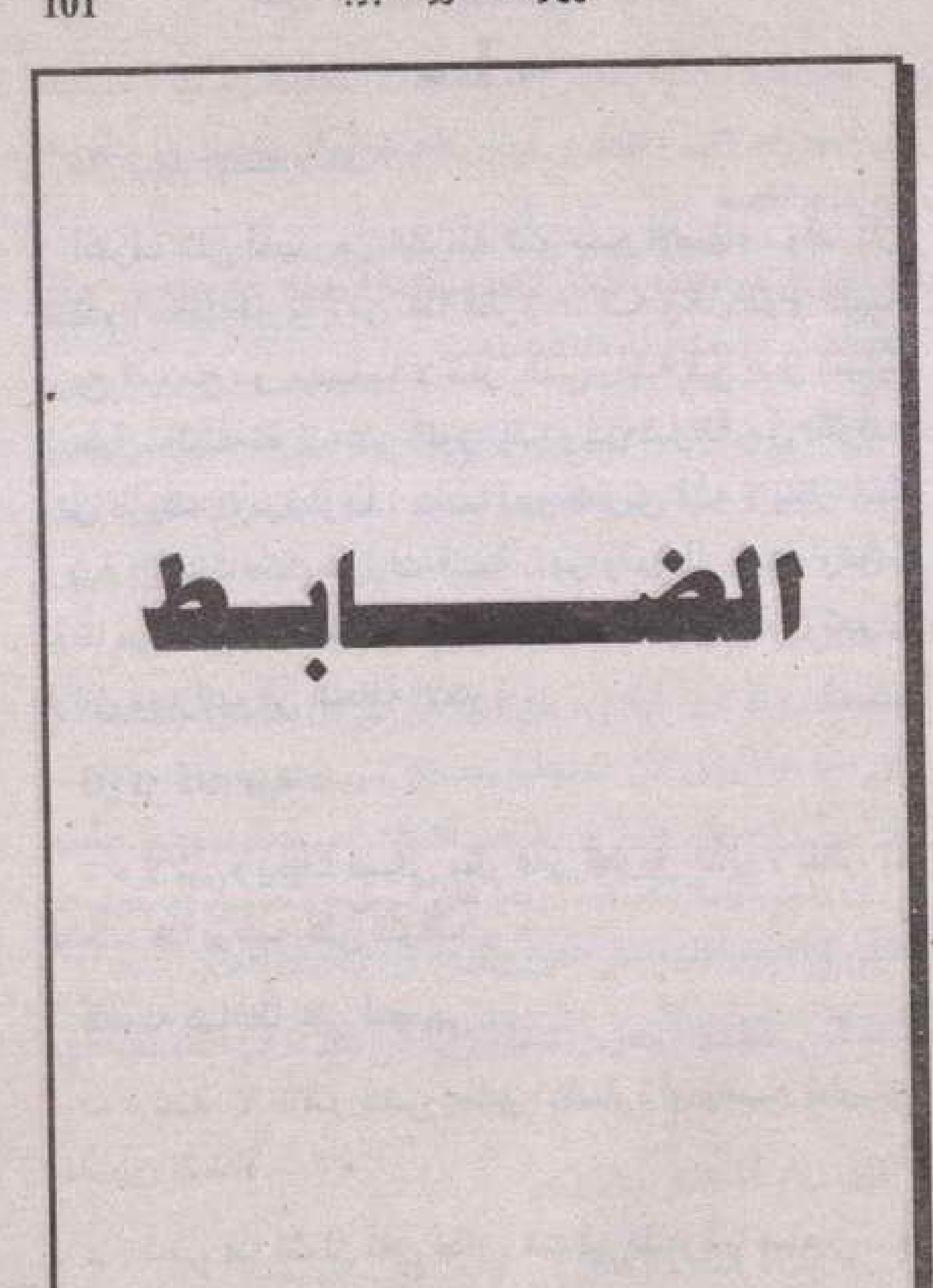
دنوت من الفراش فى حذر ، وأدركت من تنفسها الهادئ أنها تحت تأثير مهدئ ما .. سألتها فى لطف إن كانت قادرة على الكلام .. لقد حاول وكيل النيابة معها من قبل وفشل ...

ـ « (فاتن) .. أليس هذا اسمك ؟.. هل يمكنك أن تفيدينى بشىء ؟... شىء واحد ؟ »

وانتظرت ردها ..

يبدو أننى ارتكبت خطأ فاحشًا لأنها نهضت فجأة كما ينهض مصاص الدماء الذى يغرسون وتدًا فى صدره فى أفلام (هامر) القديمة ، وأنشبت مخالبها فى سترتى وصرخت :

ـ « أبو قردان !!.. لقد كان ما هاجمنا هو أبو قردان .. جسد إنسان عملاق وعلى كتفيه رأس أبى قردان !! »



- 1 -

كان يجيد الإصغاء حقًّا ...

أعترف أننى أحب رجل الشرطة الذى يجيد الإصغاء ، وقد كان المقدم (محمد خيرى) من هذا الطراز .. إنـه رجل قوى البنية مريح الملامح ، و لسبب ما لا أذكر أننـى رأيتـه فـى غير الثياب المدنية .. لكنك تعرف على الفور إنـه رجل شرطة من نظراتـه ومن طريقته الآمرة نوعًا.. عندما يعبر الطريق فإنه لا ينظر أبدًا لرؤية إن كانت هناك سيارات قادمة ، بل يعبر فـى ثبات وتـؤدة تاركًا مهمة تحاشيه على عاتق السائقين المساكين الذين تعوى فرامل سياراتهم فى اللحظة الأخيرة ..

قال لى ذات مرة :

ـ « لا شىء يخيف السائق مثل عابر الطريق الذى لا ينظر له أصلاً.. هذا يرغمه على التوقف .. »

قلت له ضاغطًا على أعصابى :

ـ « لماذا لا تنتظر حتى تصير الإشـارة أو وضـع الطريـق مناسبين للمشاة .. ؟ »

ـ « معنى هذا أنك لن تعبر أبدًا .. أنت فى القاهرة يا صاحبى .. »

كانت هذه الجملة مفتـاح شـخصيته .. احتفظ بثبات أعصـابك لترغمهم هم على الانهيار .. وعلى ضوئها يمكن فهم كل ما قـام بـه فى هذه القصة ..

متزوج هو ولديه طفلان ، لكنه يمقت الحديث عن بيته .. هذا هو أقصى ما يمكن أن تأخذه منه ..

قابلتـه فى مكتب (راسم) بعد يومين من لقاء الفتـاة فـى المستشفى ، وقـد طلب منى (راسم) أن أكون موجودًا .. إن المقدم (خيرى) هو المسئول عن التحقيق فى هذه القضية ...

بشكل ما أدرك (راسم) أنه يتعامل مع لغز من ألغاز ما وراء الطبيعة ، وقد قرر أنه لابد من وجودى فى كل خطـوة يتخذهـا .. كان متضايقًا بحق لأن المتحف يحتـاج إلـى وجوده الدائم الآن ، بينما يمثل المتحف جزءًا بسيطًا من أعماله فى مصر ، وكـان يـأمل فى أن يدير نفسه بنفسه .. ربما كان يـأمل أن تتولـى السكرتيرة (ليلى) الأمور كلها على حين يتفرغ هو لأشياء أهم ..

سـألنى المقدم (خيرى) عن زيـارتى للفتـاة فـى المستشـفى وما حدث .. والأهم . ما هو انطباعى ...؟

قلت له وأنا أتذكر ما قيل :

ـ « الفتاة اسمها (فاتن) .. بائعة فى محل بقالة .. »

- « تأكد أننا نعرف هذا .. »

قالها فى نفاد صبر .. فأردفت :

- « الفتى بائع فى محل .. إنهما من ثقافة متقاربة وظروف اجتماعية متشابهة .. أعتقد كما هو واضح أنهما متحابان منذ زمن .. أنا رأيتهما فى المتحف قبل هذا ، ودعنى أؤكد لك أنهما لا يباليان بالمعروضات على الإطلاق .. إن هو إلا مكان للقاء .. »

قال (راسم) فى ضيق لملحوظتى هذه :

- « تعنى أنهما جاهلان .. »

- « بل أعنى أنهما عاشقان .. لو كنت متضايقًا لكونهما لا يباليان بآنية أسرة (منج) فهذا شأنك .. لكن أؤكد لك أنهما لا يباليان بآنية أسرة (منج) .. »

ثم واصلت قصتى متجاهلاً الابتسامة الخفيفة التى ارتسمت على وجه الضابط :

- « لا أعرف كيف تم هذا ، لكنهما التقيا فى المتحف بعد ساعات العمل .. ربما طمعا فى مزيد من الخلوة ولم يفتهما إدراك أن نظام الأمن هنا هش جدًا ... هش كقشرة بيضة دجاجة مصابة بالكساح .. »

نظر الضابط إلى راسم فى عدم فهم ، فهز هذا رأسه مؤيدًا ، وقال :

- « على الأرجح كانا فى مكان ما من المتحف ولم يجدهما الحراس .. لا أعرف التفاصيل ، لكن من الواضح أن الثغرات الأمنية كثيرة هنا .. فيما بعد يمكننا فهم الموضوع من الفتاة بشكل أفضل لكنها تأبى الكلام حاليًا .. »

قال الضابط :

- « هناك دومًا حيلة الحمام التى يلجأ لها اللصوص فى المتاجر الكبرى .. عندما تقترب ساعة إغلاق المتجر يدخل الحمام وينتظر فيه .. ثمة احتمال لا بأس به ألا يفتش أحد الحمام .. بعدها يتم إخلاء المتجر الكبير عندئذ يخرج اللص ليجد نفسه وحده .. يمكنه أن يسرق ما يريد ويتوارى فى الحمام ثانية حتى ساعات الصباح ، ثم يخرج من المتجر عند فتح الأبواب ومعه ما سرقه .. »

احمرت أذناى وقد تذكرت أننى فعلت شيئًا مماثلاً فى دار سينما من قبل .. لكننى لم أكن أبغى السرقة وإنما مواجهة بعض الظلال الحية ذات الإرادة المستقلة ..

هز الضابط رأسه كى أكمل القصة ، فواصلت :

- « لا يعنينى كيف دخلا .. المهم فى الموضوع هو أن الفتى والفتاة تواجدا فى المتحف فى التاسعة مساء .. لم يرهما الحارس

الليلى (رضا) والسبب هو أنه كان جالسًا أمام الشاشيات مع (عاصم) الذى يحب أن يعمل ليلاً ... كانا يشربان الشاى ويثرثران بينما الفتى والفتاة يمشيان بين المعروضات .. »

بدا عليه نفاد الصبر وأوشك أن يتكلم فقلت على الفور :

ـ « أعرف .. تريد أن تقول إن الحارس و(عاصم) رأياهما .. هذا لم يحدث ! »

ـ « إذن كان الرجلان فى حالة غيبوبة تامة .. »

ـ « بالعكس .. كانا يراقبان الشاشات بعناية .. تذكر أننا فى التاسعة مساء ولما يلعب النعاس بالرءوس بعد .. هناك خمس شاشات .. لو تحرك شىء على واحدة منها فمن السهل أن يسترعى هذا انتباهك .. الرجلان يؤكدان أنهما لم يريا أى شىء ..

« فى العاشرة سمع الرجلان صراخ الفتاة ولم يريا أى شىء على الشاشة ، فهرعا إلى صالة العرض قرب موضع الطوطم .. لم يصدقا ما رأيا على الأرض .. لقد تهشم رأس الفتى تمامًا كأن مثقابًا حادًا قد غرس فى عدة مواضع منه .. بينما الفتاة كانت تصرخ بلا انقطاع وقد تعرضت عيناها لإصابتين مباشرتين .. انفجار فى كرتى العين ، والأطباء ينتظرون نتيجة محاولة الإنقاذ التى قاموا بها لعينها اليسرى ، لكن الاحتمال الأكبر هو أنها لن ترى ثانية .. لقد دفعا ثمنًا باهظًا لهذه المغامرة كما ترى .. »

أشعل المقدم لفافة تبغ ، ونفث سحابة دخان كثيفة ، ثم قال فى شرود :

ـ « ماذا قالته لك الفتاة بالضبط ؟ »

قلت فى تؤدة :

ـ « لم تقل شيئًا تقريبًا .. لا تذكر أى شىء سوى أنهما كانا فى المتحف عندما وثب أمامهما عملاق فارع الطول له رأس (أبو قردان) .. وقد أمسك بالفتى وأنشب منقاره الطويل فى رأسه عدة مرات فهشم جمجمته وفقأ عينيه ، وكانت هى تصرخ وحاولت الفرار ، لكنه أمسك بمعصمها وقرب رأسها منه بالقوة وغرس منقاره العملاق فى محجريها .. صرخت وفقدت الوعى لتجد أنها فى المستشفى .. »

ظل ينظر لى لبضع دقائق كأننى مخبول ، فقلت على الفور :

ـ « لم أتعمد أن أغير كلام الشهود ليلائم رجال الشرطة .. لاحظ أننى أقول ما قالته الفتاة وليس ما حدث .. »

ـ « وما هذا الذى حدث ؟ »

ـ « لا أحد يعرف .. عندما رأى الرجلان المشهد لم يكن هناك مخلوق قرب الشابين .. لم يكن هناك مخلوق فى المتحف كله .. »

ظل صامتًا لفترة .. ثم قال :

ـ « هذا هو بالفعل ما عرفناه .. »

أثارت هذه العبارة غيظى .. كان يصغى لكل ما قلت وهو يعرفه مسبقًا .. هذه سمة أخرى من سماته : لا يظهر أبدًا أنه يعرف وإنما يفضل سماع القصة بلسانك لعله يجد تناقضات أو فكرة لم تخطر بباله ...

ـ « وماذا يمكنك أن تستنتج ؟ »

قلت فى لا مبالاة :

ـ « رأيى أن الاستنتاجات مهمتكم لا مهمتى ، لكن يمكنك أن تبدأ بالنظرية السهلة . أن تكون الفتاة هى الفاعل ثم فقأت عينيها للتمويه على طريقة أوديب المحببة .. أو أن يكون الحارسان كذابين ولربما هما الفاعلان .. أو .... »

قال ضاحكًا :

ـ « (أو) هذه هى الأقل سخفًا .. هى ما أريده .. إن أول احتمالين هراء حقيقى فماذا عن الثالث ؟ »

قلت فى حكمة وذكاء واضحين :

ـ « الاحتمال الثالث هو أن هناك مسخًا شيطانيًا يحرس هذا المتحف ليلاً ! »

- 2 -

سأحاول أن أكون واضحًا يا سيدى الضابط ..

لا نعرف حقيقة ما هاجم الشابين إلا من كلمات الفتاة ، ويجب أن نقبل حقيقة أنه شىء لا يظهر على شاشة المراقبة .. ربما تسبب فى أن الكاميرات لم تر أى شىء حتى الشابين نفسيهما ..

لو قبلنا كلمات الفتاة وهى على الأرجح صادقة فنحن نعرف أن هناك شيئًا مخيفًا له رأس (أبو قردان) يهاجم المتسللين ليلاً.. هناك شىء مخيف هاجم حارسًا ليليًا من قبل ، وقد انتزع عنقه بالمعنى الكامل للكلمة .. أما ذلك اللص المنحوس فقد ثنى ظهره إلى نصفين ..

طرق القتل متباينة وغريبة ، لكنها جميعًا توحى بقوة لا تتاح لبشرى ..

عندما حاولت أن أتحقق من تواريخ الوفيات لم أجد أى شىء يربطها .. لا تحدث فى ليالى اكتمال القمر أو خسوفه أو أيام السبت مثلاً.. أعتقد أنها جرائم عشوائية تحدث فقط عندما توجد فريسة ليلاً ، كما أن غرض هذا القاتل ليس حراسة المتحف وإلا لما قتل أفضل الحراس هنا ، وكذلك لا يقتل بعشوائية وإلا لمات باقى الحراس الليليين ...

هناك أسباب معينة لا نعرفها نحن تجعل هذا القاتل يرتكب جرائمه .. لكننا على يقين من أن الظروف المثلى هى الليل والوحدة ..

بما أن الدائرة التلفزيونية لم تفدنا ، فإننى أقترح تواجد قوة بوليسية صغيرة حسنة التسليح ، وهذه القوة تسهر فى صالة العرض لفترة ..

هذا هو الحل الوحيد الذى ....

الحارس (منصور) و(رضا) يريدان شيئًا منك يا أستاذ (راسم) ...

* * *

بكرشه الضخم (الرياضى) تقدم منصور فى تردد نحو (راسم) ومن خلفه الفتى (رضا).. ثم نظر للضابط وأدى التحية تلقائيًا مما يدل على أنه رجل أمن سابق فعلاً.. لقد خمن مهنة الضابط ذى الثياب المدنية على الفور ..

قال فى تهذيب وهو يخفض بصره :

ـ « أستاذ (راسم) .. نحن ندرك الآن أن هناك شيئًا مخيفًا فى المتحف .. ثلاث جرائم قتل شنيعة والفاعل مجهول ..

بصراحة نحن لسنا على استعداد لأن يسهر الواحد منا وحده فى هذا المكان .. كل شىء يدل على أنه لن يستطيع حماية نفسه.. المرحوم (عامر) كان قوى البنية لكنه لم يستطع عمل شىء .. »

فى نفاد صبر قال (راسم) :

ـ « المطلوب ؟ »

ـ « نحن نستأذنك فى أن نستقيل .. »

كما توقعت بالضبط .. هذه هى اللحظة التى يستقيل فيها العاملون لأنهم لا يأمنون على أنفسهم.. وقد قال (راسم) فى عصبية :

ـ « هل جننت ؟.. أنت تعرف أن راتبك ممتاز .. ربما يمكن أن نناقش الزيادة .. »

فى إصرار قال (منصور) دون أن يرفع عينه :

ـ « للأسف يا سيدى .. نحن اتخذنا القرار آسفين .. إن العاطل المفلس تظل أمامه فرصة أن يجد عملاً بشرط أن يظل حيًا .. الموتى تنتهى فرصتهم فى البحث عن عمل .. دعك من أننى أرغب فى أن أموت قطعة واحدة .. الأعمار بيد الله طبعًا وكله مكتوب ، لكن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة .. »

نظر (راسم) بوجهه الأسمر الصلب إلى (رضا) وسأله بحزم :

- « وأنت ؟ »

- « أنا شرحه يا سيدى .. هذا يحز فى نفسى .. لكن ..... »

- « كفى .. فهمت .. »

وضغط الجرس طالبًا السكرتيرة المتحمسة (ليلى) ليطلب منها أن تتأكد من أن الحارسين نالا مستحقاتهما وقاما بتسليم الـ ... الـ ...

- « العهدة .. »

- « نعم .. نعم .. العهدة .. »

هذا الرجل (خواجة) فعلاً... سوف يجن لو سمع عن (الاستيفا) و(المخالصة) ودفتر 118 وكشف العائلة .. إلخ ...

لما انصرفا نظر لى شاعرًا بالمهانة بالتأكيد وقلب يده بمعنى أنه لا يعرف ما يقول ، فعليه أن يجد رجال أمن آخرين بسرعة ، وأن يحل تلك المشكلة ..

سألنى :

- « لو افترضنا جدلاً أننا نقبل نظرية المسخ الخارق للطبيعة .. فهل لديك مصدر ما ؟ »

قلت على الفور :

- « شكوكى تدور حول مومياء المايا تلك .. هذه المومياوات سيئة السمعة دائمًا .. ربما كانت تتحور ليلاً .. إن أسلوب تغيير الشكل Shape shifting معروف .. "

كان المقدم ينظر لى فى ثبات وقد بدا مستمتعًا بهذا كله ، فلما انتهيت قال وهو يضرب كفًا بكف :

- « عشت حتى رأيت من يتكلم عن مومياء تجول فى المتحف ليلاً وتقتل الناس .. هل تعى حقًا مدى سخف ما تتكلم عنه ؟ »

قلت فى ضيق :

- « وهل تعى حقًا غرابة ما نحن فيه ؟ »

ثم أضفت بلهجة من قرر أن يكون هو القائد :

- « أعتقد أن علينا أن نؤجل موضوع الحراسة الليلية بضعة أيام .. سوف نترك المتحف بلا مخلوق فيه ليلاً.. يمكنكم حراسته من الداخل لا الخارج .. أريد أن يشعر هذا الشىء بحريته كاملة .. سوف نستعمل الطرق القديمة .. »

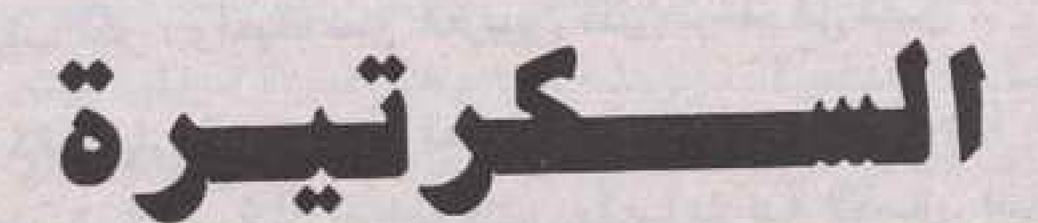
- « وما هى الطرق القديمة ؟ »

ـ « يا له من سؤال !... الدقيق على الأرض طبعًا !... سوف نضع طبقة من دقيق حول المعروضات كلها قبل إخلاء المتحف ، وفى الصباح سوف نبحث عن آثار الأقدام .. ما دامت الكاميرات لم تر شيئًا فمن الوارد أن هذا الشىء يمارس خدعة بصرية ما ، لكن لابد أن له كيانًا ماديًا يترك أثرًا .. ما يقدر على انتزاع الأعناق لابد أن له كيانًا ماديًا .. »

ـ « جميل .. برغم سذاجة الفكرة أجدها جيدة .. لكن من أدراك أن سبب تحرر هذا الشىء ليس هو وجود بشر ؟... ربما لو لم يوجد بشر فى المعرض فلن يتحرر ؟.. »

قلت وأنا أنهض :

ـ « أرى أنك بدأت تتكلم عن (الشىء) وهذا يروق لى .. لا يوجد ضمان من أى نوع ولا أعرف ما سيحدث بعد دقيقة .. دعنا نجرب لأن الفشل فى حد ذاته اكتشاف جديد .. وكما كان يقول إديسون : أنا لم أفشل مئة مرة .. بل جربت مئة طريقة لا تعمل !! »



-1-

منذ اللحظة الأولى عرفت (ليلى) أن (راسم) صيد ثمين فى يدها ..

كان له وجه صلب صارم وهو قوى البنية يبدو خاليًا من العاطفة ، لكنها أدركت أن هذه قشرة يحيط بها نفسه .. إنه يتصرف بشىء من السذاجة والطفولة التى تميز من جاءوا من كوكب آخر ، وأحيانًا تميز الغربيين الذين تراهم فى مصر ..

كانت ليلى فى الرابعة والعشرين وقد اعتادت بعد تخرجها من معهد السكرتارية أن يصفها الناس بأنها بارعة الجمال. إما أن يقولوا هذا أو تنحبس أنفاسهم أو يتصرفوا بذلك الارتباك الأحمق المميز للرجل أمام فتاة حسناء .. يوقع أشياء ويعرق ويقول كلامًا أحمق لا يعنيه ..

عرفت هذا جيدًا وأدركت أن هذا كنزها الوحيد وعليها ألا تفرط فيه إلا عندما تلوح الفرصة المناسبة ..

جاءت الفرصة مع ذلك الإعلان فى الجريدة يطلب سكرتيرة لرجل أعمال ، وقد ذهبت يومها لتجد مجموعة من الدجاجات البلهاوات يرغبن فى الفوز بهذه الوظيفة ..

كانت تعرف أنه سيختارها هى .. فى النهاية هو رجل وهى أنثى ساحرة. قرأت يومًا عن رجل الأعمال الأمريكى الذى تقدمت له ثلاث سكرتيرات .. الأولى تكتب ببراعة على الآلة الكاتبة .. الثانية حاصلة على الدكتوراه فى إدارة الأعمال .. الثالثة كانت تشرف وحدها على شركة أعمال كبرى . بعد اللقاء سألوه عن أية سكرتيرة اختارها فقال ببساطة : الشقراء !

هذه القصة تنطبق على كل أصحاب الأعمال ، وقد دخلت الاختبار لتجد مشكلة صغيرة .. زوجته معه وهى امرأة أمريكية تبدو كأنما احترقت فى فرن .. هذا خصم سهل جدًا وسوف تسحقها ببساطة.. كانت تعرف الأجانب جيدًا بحكم عملها ، وتعرف أن المرأة الأمريكية بالذات لا تستطيع الاحتفاظ بفأر ناهيك عن الاحتفاظ بزوج .. خاليات من الأنوثة غبيات تافهات ..

لكن المشكلة فى هذه المقابلات هى أن الزوجة تدلى برأيها ، ورأيها غالبًا ضد (ليلى) . فى هذا النوع من المقابلات تختار الزوجة لزوجها سكرتيرة مسنة تحلق ذقنها كل صباح .. لو احتج الزوج لصاحت فيه :

- « هل تريد سكرتيرة ذات كفاءة أم تبحث عن موديل ؟.. لو كنت تريد الأخيرة فلا تتعبنى معك ولتكن واضحًا .. »

هكذا يوافق الزوج مرغمًا على الشاويش (عطية) ذى الكفاءة هذا ..

لكن الأمر فى حالتنا هذه كان أفضل لأن الزوجة لم تتدخل قط .. ظلت تصغى فقط بلا تعبير على وجهها ، وقد بدت لليلى كنيبة جدًا مملة جدًا .. ليست لديها فرصة على الإطلاق ..

بالفعل فازت (ليلى) بالوظيفة وخرجت من الغرفة لتنظر للفتيات الجالسات ، وقالت ما معناه :

- « انتهى الأمر يا بنات .. فازت من هى أفضل .. »

عرفت أن عملها الأساسى ينحصر فى ذلك المتحف الذى ينوى (راسم) أن يقيمه ، وكانت تتمنى أن تكون معه فيما هو أهم .. البورصة والأسهم والعقارات .. إلخ ... لكنه كان مهتمًا بالموضوع بما يكفى لتهتم ..

قام معها بجولة فى المتحف وشرح لها تفاصيل كل قطعة وتاريخها وهى تدون ما يقول ، فعرفت أن عملها فى البداية سيكون مزيجًا من سكرتيرة ومرشدة ، كانت استعراضية بطبعها لذا راق لها أن تتقمص أكثر من دور فى الحياة ..

- « لا نتوقع الكثير من العمل فى البداية ، لهذا يمكنك القيام بهذا إلى أن أجد مرشدًا مؤهلاً يقوم بالعملية .. »

قالت ضاحكة :

- « سوف تحتاج إلى جيش من المرشدين .. سترى .. »

كانت تمد حبائلها حوله ببطء وتشعره بأنه لا يستطيع أن يستغنى عنها .. فى الحقيقة كان كذلك فعلاً فهو يجهل كل شىء عن المجتمع المصرى .. كان يتصرف بسذاجة (كانديد) بطل قصة (فولتير) الشهيرة ، ولم يكن يعرف إلا أقل القليل عن القوانين وتقاليد المجتمع المصرى ومعاملاته .. لهذا كان العاملون بالمتحف يطلقون عليه (الخواجة) برغم ملامحه المصرية ولغته العربية .. (الخواجة) فى العامية المصرية قد تعنى كذلك جهلك بقواعد اللعبة ...

من ينشر إعلانات الصحف ؟.. من يتفاهم مع سائقى عربة النقل عندما ينزلون حمولتهم ؟.. من يساوم المقاول الذى جلب عمال المحارة ؟.. من يتفقد عمل السباك ؟.. كلهم يحاولون سرقته أو خداعه ولو لم تكن هى هنا لضاع تمامًا ... هذه هى الحقيقة وليس رأيها فى نفسها ..

بعد استقالة رجلى الأمن الباقيين كان عليها أن تدبر رجل أمن آخرين بسرعة ، وقد فعلت هذا بكفاءة وسرعة ..

مع الوقت صارت (ليلى) مهمة جدًا وشبه شريك كامل له فى المتحف .. وصار من حقها أن تفتح باب مكتبه لتحضر أى اجتماع له مهما كان سريًا .. أخذته إلى أماكن شعبية يستحيل أن يراها وحده .. علمته أكل الفول والفلافل وصحبته ذات مرة إلى محل كشرى ، وقد شعر بسعادة مجنونة لقيامه بهذه المغامرات المجنونة برغم أن الشطة أصابته بإسهال شديد ، وفى النهاية صارت تختار له ألوان ربطات عنقه لأنه كأى أمريكى مصاب بعمى ألوان تام فيما يتعلق بثيابه ..

كان ينظر لها فى امتنان ، ويقول :

ـ « أنت بارعة جدًا .. Self managed ومهمة لى جدًا .. أ.. وجميلة ! »

لم تكن تعلق على الجزء الأخير متظاهرة بأنه أحرجها .. لكنها كانت سعيدة جدًا ..

أمها العجوز فى بيتهما المتواضع تشعر بشىء ما ، وتقول لها فى حذر :

ـ « هذا رجل متزوج يا (ليلى) .. خذى الحذر .. »

تقول ليلى فى براءة :

ـ « أنا لا أطلب شيئًا يا أمى ... هو من سيطلب .. أنا لم أؤذ زوجته لكنى لا أضمن ألا يؤذيها ..! »

كانت تعرف هدفها جيدًا .. وهذا الهدف لا يمكن أن يتحقق مع الشباب الذين يماثلونها سنًا .. هؤلاء مفلسون أوغاد لا يملك الواحد منهم سوى حبه وقميصًا واحدًا مثقوبًا يفوح العرق من تحت إبطيه .. للحصول على رجل ناضج ثرى يجب البحث بين المتزوجين ، وخاصة من يملكون بعض الوسامة بينهم ..

نعم .. لابد من الوسامة ، فهى لا تريد تاجر أخشاب ثريًا متضخم البطن يبصق على الأرض كل ثلاث دقائق ، ويطلق السباب كل خمس دقائق ..

الفتاة لا تقابل مليونيرًا وسيمًا طيعًا كطفل بين يديها كل يوم ... اليوم هناك (راسم) ..

إن الغد باسم .. باسم لدرجة أنه مخيف ..

- 2 -

بدأت المشاكل مع وفاة الحارس الذى نسيت اسمه ، ثم ذلك اللص الأحمق ، وازدادت الأمور سوءًا بوفاة وجرح هذين الشابين ...

كان هناك ضابط شرطة برتبة مقدم اسمه (محمد خيرى) يتولى التحقيق فى هذه الوفيات ، وهو موجود حاليًا بشكل شبه دائم .. كان وسيمًا فعلاً وخطر لها أنه عريس مناسب .. متزوج ؟ هذه ليست مشكلة كالعادة لكنها مشغولة مع الأحمق (راسم) ولا تريد أن تحارب على جبهتين .

فى البدء مع الوفاة الأولى كان الاهتمام فاترًا ثم ازداد سخونة وفى النهاية اشتعل وانفجر . هناك أغرب رجل يمكن للمرأة أن تتخيله وهو ذلك العجوز النحيل الذى جاء ذات يوم وراحت تشرح له معالم المتحف ، لولا أن اكتشفت أنه صديق (راسم) وأنه يرغب فى مقابلته ..

لسبب ما يثق (راسم) فى هذا العجوز غير الموحى بالكفاءة . اسمه (رفعت إسماعيل) وهو طبيب لكنه هنا يأتى هنا بصفته يفهم فى الأمور الخوارقية ..

خوارقية ؟...

هى لا تملك تفسيرًا لما حدث ، لكنها بالفعل ميالة إلى أنه خارج نطاق المنطق العلمي. هى قد رأت أشياء وعلامات معينة جعلتها لا ترتاح البتة لهذه المعروضات .. ثمة شىء ما خطأ ..

1 - لماذا يجد عامل النظافة الفئران الميتة فى الصباح تتناثر حول واجهات العرض ؟

2 - لماذا غيرت مومياء المايا تلك وضعها ؟.. حركة طفيفة جدًا لا تدركها سوى أنثى ، لكن لا شك فيها.

3 - هل هناك من أدار الطوطم حول محوره ؟.. لماذا صار وجه الدب هو المواجه للقاعة ؟

4 - (عاصم) رأى شيئًا ما على الشاشات لكنه يخاف أن يتكلم .. إنه يكذب .. لكن لماذا يكذب ؟

5 - هناك من يدخل غرفتها ليلاً.. هناك آثار واضحة .. فى البدء افترضت أنه الحارس الليلي.. هذا منطقى .. هناك مكان يمكن النوم فيه وإعداد الشاى ، لكن كيف يفتح الباب بعد ما قامت بتغيير القفل ؟

المشكلة أنها حاولت مناقشة مخاوفها مع (راسم) لكنه سخر بشدة من هذا المنطق .. قال لها بطريقته الثقيلة عسيرة الكلام :

ـ « لن نكرر ما يفكر فيه د. (رفعت) .. هو يؤمن بهذا وقد بدأ يقتنع الضابط برأيه ، لكننى ميال إلى أن هناك تفسيرًا ماديًا سوف نعرفه عما قريب .. »

ثم نظر فى ساعته ، وسألها ضاحكًا :

ـ « موعد الغداء .. هل لديك ارتباطات معينة أو Date ؟... يمكننا أن نتناوله معًا فى المطعم المعتاد .. سوف أبتاع لك غداء .. »

ضحكت فى سرها وهى تستوعب غرابة كلماته.. ما زال يفكر بعقلية الغرب : هل لديك Date ؟.. حيث الفتاة مدعوة مع شاب دومًا فى أى وقت ، و(سأبتاع لك غداء) وهى طريقة كلام لا نستعملها فى مصر ونشعر أنها لا تخلو من قلة الذوق ..

كانت تفهمه لذا قالت على الفور :

ـ « أو كى .. »

* * *

عندما أغلق المتحف أبوابه فى ذلك اليوم بعد ما زاره ستة أشخاص لا أكثر كما هى العادة كان (راسم) و(رفعت) والضابط هناك .. وكانت هى هناك ..

فى كثير من الاستمتاع راحت تراقبهم وهم ينفذون تلك الفكرة السخيفة .. الفكرة التى عرفت أنها صدرت عن (رفعت إسماعيل) .. طبعًا هذا متوقع .. من لهم رأس غريب أفكارهم أغرب ..

لقد جاءوا بجوال من دقيق ، وراحوا ينثرون طبقة رقيقة حول كل نوافذ العرض والمعروضات ذاتها ، وعندما انتهى الأمر بدا كأن نصف قاعة العرض قد تعرض لغبار بركانى ..

بدت لها الفكرة مضحكة وتذكرها بشىء ما من تراث (ألف ليلة وليلة) .. شىء من قصص (على بابا) أو شىء مماثل ..

هل هؤلاء القوم يتوقعون أن المعروضات تصحو ليلاً فعلاً ؟.. وبرغم هذا يعتقدون أنهم عقلاء محترمون ؟

قال الضابط وهو يراقب المنظر :

ـ « جميل جدًا .. سوف يقوم (عاصم) بفتح الباب صباحًا ولا يسمح بدخول أى مخلوق أو إزالة أى أثر من على الأرض إلا بعد ما يتفحص الغبار جيدًا.. لو وجد شيئًا غريبًا فليتصل بى .. »

قال د. (رفعت) محذرًا :

ـ « لاحظوا أننى لا أتوقع حدوث شىء .. سوف نكرر هذا المشهد أكثر من مرة .. »

هز (راسم) رأسه فى رهبة ، ثم انصرف الجميع ..

راق لها الأمر كثيرًا ، ولم تندهش عندما عرفت فى اليوم التالى أن الدقيق ظل كما هو لم يمس .. كذلك فى اليوم التالى والثالث .. فقط كان عامل النظافة يزيل هذا كله وهو يضرب كفًا بكف ...

يقول عامل النظافة :

ـ « حرام .. والله حرام .. فى قريتى لايجدون دقيقًا ممتازًا كهذا .. »

قالت لـ (راسم) وهى تناوله بعض الأوراق :

ـ « كمية ما يبدده هذا الرجل من دقيق تصلح لتشغيل عدة مخابز .. لماذا لا يستعمل مسحوق (التالك) أو الجبس ؟ »

قال ببراءته المعهودة :

ـ « جبس ؟.. لا أعرف ما هو .. »

على أن الأمور اختلفت صبيحة اليوم الرابع ..

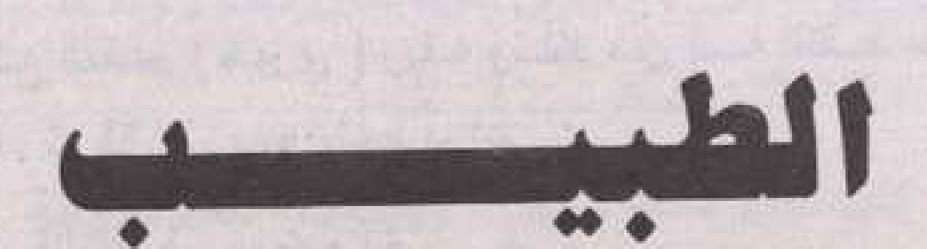
عرفت هذا عندما دخلت المتحف صباحًا ووجدت المقدم واقفًا مع (عاصم) و(راسم) وهما يلتقطان بعض الصور للأرضية ، وكان هناك جو عام من التوتر والدهشة ....

بعد دقائق ظهر (رفعت) وقد بدا من وجهه المتعكر وذقنه غير الحليقة أنه لم يعتد الاستيقاظ فى ساعة مبكرة كهذه .. لقد استدعوه ولعل سيارة شرطة جلبته من داره فى هذه الساعة مما جعل الجيران يتساءلون ..

لكنه عندما رأى المشهد تصلب وبدا أن الإرهاق فارقه ..

سمعته يقول :

ـ « أكره أن أكون محقًا طيلة الوقت .. لقد صار هذا مملاً ! »



- 1 -

لابد أننا وقفنا بلا حراك نصف ساعة ..

لابد أنهم شعروا بالقشعريرة مثلى ، وتكورت جذور الشعر على سواعدهم لتستحيل جلد إوزة ..

لابد أن معالم الغباء ارتسمت على ملامحنا ..

ابتلع المقدم (خيرى) ريقه وتأكد من أنه التقط صورة أخيرة ، ثم قال لى وهو يتأبط ذراعى :

- « فلنتكلم فى موضع آخر .. »

صاح ذلك المدعو (عاصم) الذى يحب العمل ليلاً :

- « هل يقوم عامل النظافة بإزالة هذه الآثار ؟ »

قال بلهجة آمرة دون أن ينظر للخلف :

- « لا .. ولا تسمح لأحد بزيارة المتحف إلى أن أطلب أنا ذلك .. »

وهكذا جلسنا فى غرفة (راسم) ، وجاء (راسم) بنفسه ليلقى بجسده على الأريكة منهكًا وبعد ثوان ظهرت السكرتيرة الحسناء كما توقعت .. لا يمكن أن يوجد (راسم) فى مكان لمدة ثلاث ثوان من دون أن تظهر هى ، ومهما كانت المحادثة خصوصية

أو حميمة .. لو علقت على ذلك لقالت إن هذا من صميم عملها .. على السكرتيرة أن تعرف كل شىء ..

الشىء الذى رأيناه فوق الدقيق المنثور على الأرضية .. الأثر الذى حدث فى ساعة من الليل ولم يره أحد ، كان آثار أقدام واضحة تشبه أقدام الذئب أو الكلب .. لكن لا يمكن أن نتحدث عن كلب تسلل للمتحف ليلاً لأن هذه الآثار عملاقة فعلاً ... لو أنك طويت الجريدة إلى نصفين لأمكنك أن تدرك طول القدم وأبعادها ...

كما توقعت قالت السكرتيرة فى ثقة :

- « كلب تسلل للمتحف ليلاً .. ربما هناك نافذة مفتوحة .. »

قلت فى غيظ :

- « لو كان هناك كلب بهذا الحجم لعجز عن الدخول من أية فتحة .. »

يمكنك بما أنك تعرفنى جيدًا أن تخمن أننى كنت أفكر فى المذءوبين .. عندما نتكلم عن ذئب عملاق يمشى على قدمين فقط فلا توجد احتمالات كثيرة .. لكن المذءوبين يمثلون عالمًا آخر ولا ينتمون لثقافتنا .. يمكن أن تفكر فيهم فى غابات أوروبا المظلمة .. فى قلاع رومانيا المهجورة .. لابد من شتاء وجليد ومشاعل .. هنا فى مصر يبدو الأمر بعيدًا سخيفًا .

الغريب فى آثار الأقدام تلك أنها بدأت من حيث لا يمكنك أن تخمن .. إن صاحبها دار حول نفسه مرارًا بحيث صارت معرفة البداية والنهاية مستحيلة ، وكأنها ولدت من ذاتها .. لكنها كانت تدور بكثافة حول موضع معين هو الطوطم ... ومن الغريب أن هناك بقعة خالية من الدقيق تمامًا خلف الطوطم ..

نعم .. الطوطم الأمريكى الذى يبلغ ارتفاعه قامتين والذى يقف كئيبًا فى ركن المكان .. طوطم (أوجيبوا) إياه .. هذا الطوطم كان موضع اهتمام صاحب الآثار ويبدو أنه دار حوله كثيرًا ..

الفكرة المرعبة التى بدأت تولد فى لا وعيى هى أن صاحب القدمين لم يأت من الخارج ليدور حول الطوطم ..

لقد ولد من الطوطم ذاته !

* * *

قال المقدم (خيرى) فى نفاد صبر :

ـ « نحن نعرف الآن أن هناك من يدخل .. لا أصدق حرفًا بصدد آثار أقدام الذئب هذه لكن هناك من يدخل .. هذه هى الحقيقة الوحيدة المهمة ، وأعتقد أن علينا مراقبة قاعة العرض مباشرة فى الليلة القادمة ما دام هذا الشىء لا يظهر على الشاشات .. »

قال (راسم) وهو يقلب كفه بطريقته المعتادة :

ـ « وكيف تضمن أن هذا الشىء سيتحرك ؟.. ربما تقضى أشهرًا عدة تنتظر .. »

ـ « هكذا يكون أكثر عملنا .. ننتظر أشهرًا عدة ونتقاضى راتبنا عن هذا .. »

كنت أفكر مليًا ..

الأمر بدو مألوفًا بشكل ما ..

لم أفكر فى هذا من قبل ، لكن لدينا جرائم توحى بأن من قام بها أبو قردان ... ثم وحش عملاق قادر على قضم عنق إنسان .. ثم وحش قوى قادر على أن يهشم عظام إنسان .. ثم وحش يترك آثار قدمى ذئب عملاق على الأرض ...

أين تجتمع هذه الصور ؟

نحن لا نتكلم عن أبى قردان طبعًا بل نتكلم عن (الكركى).. لا تتصور أن ثقافة الفتاة (فاتن) تسمح بالتفرقة بين الأنواع .. بالنسبة لها ليس الوعل سوى (خروف) وليس الكركى سوى (أبو قردان) ..

نحن إذن نتكلم عن ثور وكركى ودب ووعل .. باختصار : وجوه الحيوانات المحفورة على الطوطم الخشبى ...

كان من الحمق أن أشتبه فى مومياء المايا الرقيقة المهذبة ..

لقد كانت الإجابة فى الطوطم منذ البداية ..

ونظرت إلى (راسم) وقلت بلهجة من أفاق من غيبوبة طويلة :

- « ما الذى تعرفه عن هذا الطوطم المعروض فى متحفك ؟ »

- 2 -

قال (راسم) :

- « الأثر الوحيد الذى جاء من ثقافتى التى نشأت عليها فى (نورث داكوتا) كان هذا الطوطم .. كما قلت سابقًا هو يرمز لفروع قبيلة (أوجيبوا) الهندية التى أرغمها الجيش الأمريكى على الإقامة فى جبال السلحفاة ، وقد وقف هذا الطوطم وسط قريتهم ..

مع مرور الوقت لم تعد لهذه الأشياء القيمة التى كانت عليها فى الماضى بالنسبة لهم ، وقد نجحت فى شراء هذا الطوطم من أحد زعماء القرية ، وكان الأمر سهلاً.. توقعت مشكلة ما ، لكنهم وافقوا على الفور ، وبدا لى أنهم عرفوا قيمة الدولار الحقيقية بالمقارنة بعمود من خشب .. »

قلت فى ضيق :

- « هذا العمود الخشبى له ذات القيمة الرمزية للعلم .. إنه يرمز لحضارتهم وثقافتهم .. ليس كل شىء قابلاً للقياس بالمال .. تذكر أن ثمن أى علم لن يتجاوز حفنة جنيهات ، لكن الناس تموت من أجله فى الحروب .. »

قال المقدم وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « أنا لا أعرف أصلاً معنى كلمة طوطم .. هلا شرح لى أحدكم ما تعنيه ؟ »

* * *

يصعب أن نلخص مفهوم الطوطم فى هذه العجالة ، وقد أفنى الكثير من علماء الأنثروبولوجى حياتهم فى فهمه ..

أول من أدخل لفظة (طوطم) إلى الإنجليزية هو الرحالة (لونج) عام 1791 فى كتابه (رحلات مترجم هندى) .. ثم سيطرت اللفظة على قواميس الأنثروبولوجى خلال القرن التاسع عشر .. .. دعك من أن الفيلسوف (دوركايم Durkheim) قد درس الموضوع بعناية وكتب عنه كثيرًا ، فلا يذكر الطوطم من دون ذكر اسمه ..

إن اللفظة توحى بمعنى (القرابة) فى اشتقاقها من لفظة (دودم) التى يستعملها أفراد قبيلة (أوجيبوا) ..

الطوطم حيوان أو جماد أو نبات يمثل مجموعة من البشر .. يتراوح هذا التمثيل بين اعتقادهم بأنهم من نسله واعتقادهم أنهم قتلوه ..

لو كنت تعتقد أننا ابتعدنا عن فكرة الطوطم لهذا الحد ، فلتفكر فى فرق كرة السلة أو القدم الأمريكية التى تتخذ حيوانًا صغيرًا رمزًا لها .. عرف العرب قبل الإسلام الطوطمية .. تذكر أن كل قبيلة كان لها صنم خاص بها على شكل حيوان غالبًا. سوف تلاحظ أن آلهة مصر القديمة هى غالبًا مزج بين حيوان وبشر .. وهو ما يرمز إلى طبيعتها وطبيعتنا المركبة. إنك تجد آثار الطوطمية بوضوح فى الكلام عن التمساح (سبك) والقطة (باستت) ...

إن الإنسان ميال بطبعه إلى محاولة فهم الطبيعة شديدة التعقيد من حوله ، بأن يجرى تصنيفات سهلة لها .. وقد افترض بعض العلماء أن الطوطم يتم اختياره بناء على تشابه العشيرة مع الحيوان .. افترض بعض العلماء الآخرين أن الطوطم يتم اختياره على نمط حيوان يروق مزاجه للعشيرة ..

افترض فرويد أن تجمعات الإنسان الأولى كانت تتكون من ذكر (ألفا) يحيط به الحريم .. ولما كان هذا الوضع يزرى بذكور القبيلة الأصغر سنًا فإنهم قرروا ذات ليلة أن يقتلوا الذكر ألفا أباهم الذى يخافونه ويحترمونه ويحبونه بالقدر ذاته . من هنا نشأت عقدة أوديب وتلك الإحساس بالذنب الذى يحمله البشر .. بل إنه افترض أن فكرة (الخطيئة الأولى) فى المسيحية نشأت من هنا ..

الطوطمية تحرم قتل الحيوان الذى يرمز للأب وتحرم أكل لحمه .. لكن هذا الحيوان يرمز للقرابة وأصل كل أفراد القبيلة .. إن الأب قد يكون هو الطوطم .. هو الحيوان الذى قتله أفراد العشيرة يومًا ما ثم اكتشفوا أنه أبوهم ..

إنها لفكرة صعبة شديدة التعقيد ، لكن لابد من فهمها لكل من أراد فهم نفسية الإنسان البدائى ...

* * *

كان الأمر غامضًا لكنه كذلك واضح ..

هناك تناقض كبير فى الجملة السابقة لكنها الحقيقة ..

ربما لا نصدق حرفًا عن موضوع الطوطم الذى يصحو ليلاً هذا ، لكن لا أرى ما يمنع من التخلص منه ..

قال (راسم) محتجًا وقد نهض فى عصبية :

- « هل تمزح ؟.. هذا الشىء ثمين جدًا ، وقد ازدادت قيمته بفعل ما بذلت فى الحصول عليه من جهد .. »

قلت فى برود :

- « لكن علامات استفهام كثيرة تحيط به .. هناك عادة بشرية قديمة أن تحرق كل ما لا تفهمه ولا أرى ما يمنع من أن نطبق هذه القاعدة هنا ! »

هذا الشىء ملعون يا صاحبى .. ملعون وكل الدلائل تشير لهذا .. يعلم الله وحده أية طقوس كانت تمارس حوله ، وما الذى يعرفه رجال القبيلة عنه .. لكننا لن ننتظر ضحية أخرى ..

ونظرت للمقدم متسائلاً .. هل لديه أية اعتراضات ؟

أشعل لفافة تبغ كعادته وراح ينظر لنا واحدًا تلو الآخر بعينيه اليقظتين ، ثم قال بصوت خافت :

- « لا أستطيع أن أبدى رأيًا .. طبيعتى كطبيعة العالم والقاضى تحتاج إلى دليل مادى قوى قبل أن تصدق كلامًا كهذا .. لهذا أترك لكما حرية التصرف ... ليس لى رأى فى هذا الموضوع ، فالطوطم ملك للأستاذ (عاصم) وهو حر أن يفعل به ما يشاء ما دام لن يتسبب فى حريق أو يؤذى أحدًا .. »

- « هذا يعنى أنك لا تتحفظ على حرق الطوطم ؟ »

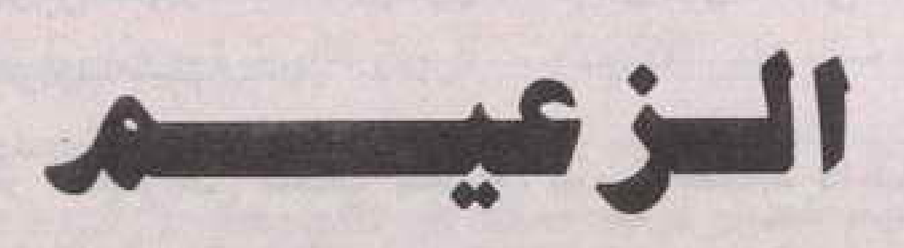
- « ولا أتحفظ على تركه .. فقط لنأمل أن تكون هذه النهاية فعلاً ... »

قلت لـ (عاصم) والسكرتيرة الحشرية :

ـ « الأمر كله يتوقف عليك .. لو كنت موافقًا فعليك أن تحضر كمية من الكيروسين وسيارة نصف نقل ، ونقوم غدًا بأخذ هذا الشيء إلى الصحراء حيث نشعل فيه النار وننتظر حتى يتفحم .. طبعًا لن نفعل هذا هنا منعًا لتدخل الفضوليين .. يمكنك أن ترفض ، لكن لا أوصى بهذا لأن معناه أن عليك أن تتصرف وحدك من الآن فصاعدًا .. »

ونهضت مغادرًا المتحف ، عالمًا أنه سيتصل بى ليلاً على الأرجح ..

* * *



- 1 -

جاء الشتاء من جديد ، واكتست السهول بتلك الطبقة البيضاء السميكة ..

السماء مكفهرة مظلمة ، فلا يوجد أبيض إلا تلك الندف الثلجية المتطايرة فى كل صوب ، والتى تجد طريقها دومًا إلى الفراء الذى ترتديه وإلى حاجبيك .. هكذا يتحول العالم من حولك إلى أشخاص ذوى حواجب شائبة ..

تتناثر الخيام التى اكتست بالثلج ، بينما يتصاعد الدخان من قمم بعضها ..

إنه لمشهد رهيب .. ثمة لمسة من الحزن الشاجى فى هذا المشهد الذى يرمز إلى انهيار حضارة كاملة.. تشيخ .. تلفظ أنفاسها الأخيرة مع الشتاء ..

ربما فى الربيع كان المشهد يختلف .. ربما كانوا يرقصون فى المرج ، ويلوح المحاربون الأشداء برماحهم .. لكن خريف الفصول يشبه خريف الشعوب ..

ثم يأتى الشتاء ..

* * *

الجالس أمام النار يدخن الغليون الطويل المحشو بأجود أنواع التبغ هو (ثلاثة وعول) .. يمكنك أن تميز وجهه المتعب المرهق والتجاعيد المرسومة على كل بقعة من وجهه الهندى الصارم .. إن الشمس قد دبغت جلدهم بالمعنى الحرفى للكلمة لهذا لا يبدو عليه أى تعبير وهو ينفث الدخان فى صمت ..

من حوله يجلس شباب القرية يحتسون الحساء الساخن ..

لم يعد هناك لحم .. لم تعد هناك حبوب .. لم تعد هناك ذرة .. التبغ يوشك على الانتهاء ...الرجل الأبيض وعدهم بالتموين قريبًا لكن الشتاء قد بدأ ولم يصل أى شىء وهم يتجمدون .. حتى التهام الجذور لم يعد ممكنًا لأن الثلج يغطى كل شىء ..

يصمت الشباب لأن (ثلاثة وعول) من جيل لا يتكلم إلا عندما يكون هناك ما يقال ويكون بالغ الأهمية ..

بعد صمت طال أخرج سحابة دخان ، وقال بصوت خفيض :

ـ « الرجل الأبيض يخدع (الأوجيبوا) .. »

لم يعلق أحد .. انتظروا ما سيقول بعد هذا ...

إن الكل يعرف هذه الحقيقة على كل حال ، لكنهم يخشون أن يلفظها (ثلاثة وعول) بنفسه لأن هذا يجعلها مؤكدة وهذا يثير الرعب فى النفوس ..

قال بعد فترة أخرى :

ـ « هو وضعنا هنا ووعدنا بالطعام ، لكنه يتركنا نموت ببطء كما حدث للسيوكس .. إن الرجل الأبيض لا يريد الأرض فقط بل يريد الأرض خاوية .. »

هنا طلب أحد الشباب الكلمة .. كان فارع القامة قوى البنيان لبشرته لون الخشب ..

ـ « لو سمح لى (ثلاثة وعول) بالكلام .. يمكننا أن نخرج من هنا ونستولى على الطعام بأنفسنا .. هناك مزارع ثرية قريبة وفيها قطعان من الماشية وزكائب من الغلال .. »

قال (ثلاثة وعول) :

ـ « نحن نعرف ما يفعله (ذوو السترة الزرقاء) .. إنهم يذبحون .. لديهم البنادق والمدافع وفى كل صدام لنا معهم يتساقط المئات منا .. »

هنا هب شاب آخر ، وصاح :

ـ « إما أن نموت ونحن نقاتلهم أو نموت هنا من الجوع .. »

كانت النفوس تغلى .. من الصعب أن تتعقل وأنت ترى أطفالك جوعى ..

راحت الآراء الغاضبة تتوالى ، وكلها تدعو إلى الثورة .. نعم هى ثورة مقضى عليها بالفشل لكن الهندى الأحمر يعرف كيف يموت وهو يقاتل ..

فى النهاية رفع (ثلاثة وعول) يده كى يصمتوا وقال :

ـ « غدًا يذهب محاربونا للاستيلاء على حقنا من المؤن من أقرب مزرعة .. سوف يقودهم ابنى (الجواد الأرقط) .. لقد قال (ثلاثة وعول) كلمته .. »

ساد البشر وهدأت النفوس بينما أعاد حشو غليونه وعاد ينفث الدخان بوجه قد من حجر ...

* * *

الطبول تدق كما فى الأيام الخوالى ، والساحر الذى صار عجوزًا متهالكًا يسقى كل واحد من المحاربين الذين طلوا وجوههم بالأصباغ جرعات من شراب يزيدهم شجاعة ..

وعندما ساد الظلام انطلقت الخيول تبعثر الجليد فى كل صوب ، ومن جديد تصايح الرجال صيحات الهنود الحمر المخيفة التى تجمد الدم فى قلب الرجل الأبيض ...

جلس الرجال الباقون حول النار ، والنساء رحن يحاولن تدفئة الأطفال بأية طريقة كى يناموا .. ربما كن يدارين قلقهن بهذه الطريقة ..

على أن الغارة لم تتأخر كثيرًا ، وسرعان ما دوت صرخات الحماس .. وعبر الأفق الجليدى رأوا جوادًا .. اثنين .. عشرين جوادًا .. لقد عاد المحاربون جميعًا .. تصاعدت صيحات التهليل والفرح .. عادوا وهم يحملون الكثير من الأشياء .. أكياس لحم مقدد وغلال وأكياس دقيق وتبغ ..

المحاربون راضون عن أنفسهم .. يعرفون أنهم اضطروا للقتل وإشعال النار فى المزرعة ، لكن عليك أولاً أن تعرف من بدأ قتل الطرف الآخر .. هم راضون لأنهم حموا قبيلتهم من الاندثار .. راضون لأن النساء والأطفال هنا فى أمان ، بينما هم قاموا بما يجب القيام به ..

سادت المعسكر المعزول فرحة غامرة ، وسرعان ما أولمت وليمة على اللحم المقدد .. لا شىء يعدل اللحم الطازج لكن الحصول عليه صعب .. لابد من غزوة على مزرعة بها قطعان يمكن اقتيادها هنا ، لكن المعدة الفارغة لا تختار ...

استمر الحفل حتى ساعات الفجر الأولى .. وللمرة الأولى شعروا بدفء لم يشعروا به منذ قرون ..

أغمض (ثلاثة وعول) عينيه وتمنى فى سره ألا يحدث ما سيحدث مساء غد ...

- 2 -

عندما سقطت الطلقة الأولى فوق الخيام ، لم يكن هناك وقت للدهشة ..

لقد تناثرت الشظايا والنار والجليد ومعها طار الرجال فى الفضاء .. من الغريب أن ترى اللهب يشتعل فى الجليد ، لكن هذا حدث ...

صوت الانفجار كان عاليًا حتى إن أحدًا لم يسمع صوت (البروجى) وهو يعلن بدء الهجوم ..

كان (ثلاثة وعول) يتوقع أن يكون الهجوم بطريقة رجل لرجل .. لكن لم يتصور أنهم سيدعون بإطلاق المدافع ..

هوت الطلقة الثانية فوق خيمة أخرى فاشتعلت ، عندها صرخ ابن الزعيم وهو يلوح بهراوته :

- « فلتتراجع النساء والأطفال وليتبعنى المحاربون .. »

تم تنفيذ الأمر بلا نظام .. وفى هذه اللحظة ظهر الجنود الزرق .. لم يكونوا يلبسون الأزرق بل هم وضعوا على ستراتهم أغطية بيضاء ليسهل التمويه ..

الخيول تصهل .. تقف على قائميها الخلفيين ..

الثلج يتناثر ..

الطلقات تصفر ..

شاب هندى يمتطى حصانه بلا سرج ويثب فوق الجنود ليسقط أربعة منهم .. يستل خنجره ويولجه فى اثنين قبل أن يفرغ فيه الثالث رصاص بندقيته ..

بلطة تطير جوار واحد من الجنود الزرق ، ثم تستقر فى حنجرة واحد يقف خلفه ..

تهوى قذيفة جوار الطوطم .. الطوطم الذى تحمله القبيلة معها حيثما ذهبت .. تتمسك النار بقاعدته ، لكن الساحر يركض ليطفئ النيران ...

يقف (ثلاثة وعول) يرقب المشهد صامتًا .. لا يوجد أى تعبير على وجهه ..

مشى حتى وقف جوار ساحر القبيلة ، وقال له :

- « حان الوقت .. دع الشىء يتحرر .. هذه كلمة (ثلاثة وعول) .. »

ينظر له الساحر فى رعب .. من الخطر أن تخرج الشيطان من محبسه حتى لو كان ليقتل عدوك .. قد يستدير عليك أنت ، لكن (ثلاثة وعول) قال فى حزم :

- « الرجل الأبيض يوشك على إبادة (الأوجيبوا) .. حان الوقت .. »

فى هذه اللحظة يندفع ابن الزعيم على جواده وهو يطلق صرخات متوحشة ، ويهشم بهراوته عدة رءوس .. إنه يخترق صفوف السترات الزرقاء ويمزقهم ببسالة غير عادية ...

هنا يتخذ عدد من الرماة أوضاع التصويب ويسددون بنادقهم نحو هذا الثائر ..

تنطلق سبع بنادق فى لحظة واحدة نحو الفتى فينظر للسماء ، ثم يهوى ليتناثر الجليد ...

هناك كولونيل أو قائد ملتح يلوح بسيف ويتقدم الصفوف وهو يحمل علم الولايات المتحدة . ولا يكف عن ترديد :

- « هجوووووووم ! »

لم يكن (ثلاثة وعول) يفهم كلام الوجوه الشاحبة ، لكنه أدرك أنه يأمرهم بالهجوم ...

كان الغضب والغيظ يتخذان طريقهما إلى رأسه ، لكن ملامحه كالعادة لا تشى بأى شىء .. هذه أرضنا .. هذه محاصيلنا وطعامنا .. الرجل الأبيض يريد أن نموت فى صمت ولا نحتج .. يريد أن نشاهد الأطفال يموتون فلا نتكلم ولا نغضب ..

لا يعرف متى تلقى الطلقة لكنه شعر بأن الحياة تتخلى عنه .. سقط على ركبتيه ، ولم يشعر بأى رعب أو حزن .. لقد مات ابنه منذ لحظات ولحق بالأجداد ، فلم يعد يبالى بالموت أو للدقة صار يرحب به بشدة ..

فوق الثلج سقط ...

يبدو لمن يراه أنه راكع يتأمل ...

إنه يرى المذبحة بعين خابية .. يرى قومه يبادون .. يعرف أن من سيبقى حيًا منهم سوف يقاد كالأغنام إلى سجن آخر أصغر ..

لن يأخذوا الدودم معهم هذه المرة .. غالبًا سوف يحرقه ذوو السترات الزرقاء وهم يضحكون ..

وفجأة رأى فى غبشة ظلمات النهاية ... رأى ......

* * *

كان المشهد لا يصدق ..

من يدرى ؟.. ربما لم يحدث شىء فعلاً وربما هى سكرات الموت ؟.. إن الثلج فى كل صوب والريح تعوى والظلام دامس والدخان كثيف .. دعك من لهب النيران ورائحة البارود .. دعك من البقعة السوداء التى تتسع فى مركز الشبكية .. هذا يجعل ما تراه عرضة لشكوك كثيرة جدًا ...

من بين ألسنة اللهب وسحب الدخان يرى هذا الشىء العملاق يتقدم ..

لم يكن بشريًا .. له رأس غريب عملاق . (هل رأس ثور ؟) .. كان قويًا جدًا ..

رآه يتقدم وسط الطلقات ورآه يمسك بحناجر السترات الزرقاء فيرفعهم فى الهواء ، ثم يقذفهم إلى مسافات بعيدة وهم يصرخون ..

لم يكن وحده .. من بين الدخان هناك شىء مريع آخر ينقض عليهم ...

الطلقات تدوى من كل صوب ...

الجنرال على حصانه يصرخ وهو يشق الدخان بسيفه :

ـ « هجووووم !! »

لكن شيئًا انتزعه من فوق السرج .. ورآه (ثلاثة وعول) يصرخ بينما ذراعان قويتان تحملانه فى الهواء فى وضع أفقى عاليًا عاليًا .. ثم تهشمان جسده كما يفعل المرء بقشرة بيضة ...

والصراخ !

كانوا يصرخون كأنهم يذبحون ...

هناك أكثر من شبح يجوب المكان .. يبعثر الثلوج .. يفتت كل من يعترض طريقه من ذوى البشرة الشاحبة ...

اجتمع الدخان مع عكارة النهاية مع الدموع كى تصير الرؤية شبه مستحيلة على (ثلاثة وعول) ، لكنه كان راضيًا .. راضيًا حتى اللحظة التى تخلت فيها قواه عنه فسقط على وجهه فوق الثلوج ..

* * *

هذه من الحوادث التى لم يدونها الجيش الأمريكى قط ، ولم يتكلم عنها أحد بعد هذا .. فقط تم تأبين القتلى باعتبارهم (قتلوا أثناء المواجهات مع ثورة هنود أوجيبوا). صحيح أن جراحى الجيش أبدوا دهشتهم من حالة الجثث الشاذة ومن الإصابات التى لا تصدق ، لكن الحرب هى الحرب .. لا أحد يقف ليتساءل عن سبب كون جروح حرب أبشع من جروح حرب أخرى ..

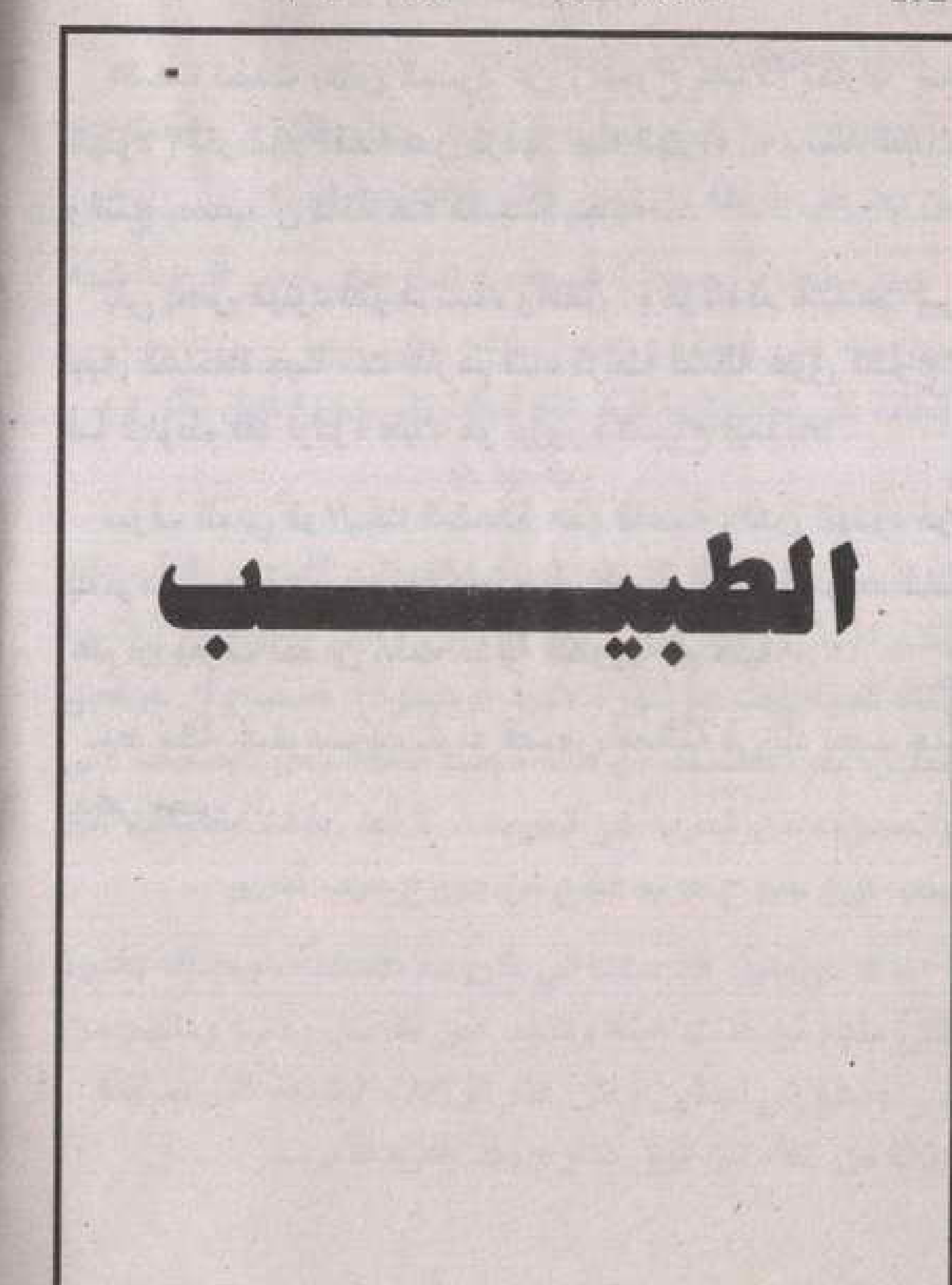
هناك كولونيل قد مات فى ظروف غامضة ، وهناك عشرة قتلى منهم من فقئت عينه ومنهم من انفصل رأسه ومنهم من ثنى جسده إلى نصفين ، لكن علم الولايات المتحدة ظل سليمًا .. هناك من أنقذه من فوق الثلوج وقد غطاه الدم ...

عندما تحدث بعض الجنود عن (مسوخ عملاقة تحارب مع الهنود) أخرسهم القادة عن ترديد هذا الهراء .. وسط الظلام والثلج يصعب أن تأخذ هذه الشهادة بجدية ...

بقى بعض الهنود أكثرهم نساء وأطفال ، وهؤلاء تم اقتيادهم إلى جبال السلحفاة حيث مات أكثرهم أثناء الرحلة الشاقة فوق الثلوج . أما الطوطم فقد تركوه حيث هو ليزوره السياح فيما بعد .

سوف تنسى الولايات المتحدة هذه القصة ، لكن الهنود لن ينسوها .. سوف يرددونها كإحدى أساطيرهم الخالدة ، وبعد مائة عام لن يعرف أحد إن كانت حكاية فلكلورية أم حقيقة ..

بعد مائة عام سوف تتردد قصص مماثلة فى بلد بعيد جدًا يدعى مصر ...



- 1 -

كان العشاء شهيًا .. لقد أرسل لى أهلى فى القرية تلك المنحة المقدسة التى تتكون من (الرقاق) والبطة الأبدية ، مع بعض الفطير .. من جاء من (كفر بدر) لم يجدنى فى البيت فترك لى كل شىء عند البواب ، والبواب لص لهذا لن أندهش لو تضمنت الهدية بقرة حية أو خروفًا سمينًا.. لن أعرف أبدًا ..

المهم أننى وقد صرت وحدى فى دارى قمت بتقسيم الطعام بحيث يكفينى ثلاثة أيام ، وأعددت لنفسى عشاء ممتازًا ..

قمت بإنهاء طقوس المساء كلها ، ثم تأهبت للنوم .. أنا مرهق اليوم وبحاجة لدخول الفراش مبكرًا .. الثالثة بعد منتصف الليل موعد مناسب ويدل على أننى بدأت الاهتمام بصحتى ..

هناك كتاب عن (تاريخ زراعة الأرز فى جزر الملايو) وهو كتاب ممتع فعلاً ، فقط لو استطعت إنهاء الصفحة السادسة منه دون أن يغلبنى النوم. جلست فى الفراش ورحت أطالع بذهن مشتت حتى غلبنى النعاس ...

إننى هناك ..

الصحراء مترامية حارقة .. الشمس عندما تصير أكثر من قرص بعدة ألوان والأفق يترجرج بفعل الهواء الساخنّ ، وهذا الشيء يحلق فى السماء .. إنه نسر .. نسر ..

صوت عواء يتردد فيجاوبه عواء آخر كأنه الصدى ..

هو ذا ذلك الشيء يدنو منى .. إنه ذئب .. لا ليس ذئبًا بالضبط بل هو ذئب البرارى Coyote.. هذا حلم أمريكى الطابع جدًا إذن .. الكايوتى لو كنت من الجنوب والكايوت لو كنت من الشمال ..

حلم أمريكى الطابع جدًا .. وليد كلامى مع (راسم) وأحداث النهار .. وحشة .. انقباض .. إن ...

ترررررررن !

صحوت من نومى مذعورًا وقد أفلت قلبى ضربتين ..

لابد أن هذا الجرس هو هاتف (راسم).. لابد أنه لم يضبط ساعته منذ قدومه إلى مصر ، ولهذا يفترض أنها العاشرة صباحًا وهى كذلك فى الولايات المتحدة فعلاً ...

ركضت فى الصالة نحو الهاتف وأنا ألعن الغباء ، ورفعت السماعة .. هنا سمعت من يقول لى إن الحاجة (عفاف) مريضة جدًا .. من هى الحاجة (عفاف) ؟..

ـ « المريضة التى رأيتها فى المستشفى منذ شهر .. إنها فى حالة سيئة .. »

حاولت التنصل :

ـ « يمكن أن أراها فى المستشفى فى العاشر ... »

ـ « بل هو الآن وإلا فهى ميتة .. سوف آتى لاصطحابك بسيارتى خلال نصف ساعة .. »

هو يعرف بيتى كذلك .. لا مجال للفرار طبعًا .. هكذا بدأت أبدل ثيابى شاعرًا بأننى مظلوم .. مظلوم إلى حد لا يصدق ...

طبعًا كانت السيارة تنتظر أمام باب البناية ، ليتضح لى أن الحاجة (عفاف) تعيش فى (بابو غينيا الجديدة) تقريبًا .. رحلة طويلة جدًا عبر شوارع القاهرة الخالية المظلمة ..

فى النهاية هأنذا أقف جوار فراشها وحولى ستة أفراد مذعورين .. ما المشكلة يا حاجة ؟

ـ « آلام فى عينى اليسرى .. »

لاحظ أن مشكلتها القديمة كانت فقر الدم ، وهذا يعنى أننى مسئول عنها للأبد فى أى مرض يصيبها .. دعك من أننى لا أعرف الطريقة العبقرية التى تقتل بها آلام العين اليسرى . كظمت

غيظى ، ولعلنى أجد فى هذه المواقف نوعًا من الدعابة يدفعنى إلى أن أمضى فى لعب الدور حتى النهاية ..

كان هناك (دمل) صغير فى الجفن هو سبب هذا كله ، وهو الذى جعل الساعة تقترب من السادسة صباحًا وأنا لم أدخل فراشى بعد ..

هكذا أوصيتهم بطلب رأى طبيب عيون مع عمل كمادات دافئة حتى تلك اللحظة ، وانصرفت مع الرجل الذى جاء بى هنا ، والذى ظل قلقًا يسأل إن كانت هناك خطورة معينة على الحياة ..

ـ « هناك خطر لكن على حياتى أنا .. فى المرة القادمة عندما تكسر مشط قدمها فلا تطلب رأى الطبيب الذى عالجها من فقر الدم من فضلك .. »

عدت لدارى مغتاظًا .. ففتحت الباب عازمًا على أن أنام حتى الظهيرة على سبيل الانتقام ..

كان ضوء الصباح يغمر الشقة الآن ..

وفى ضوء الصباح المذكور رأيت .....

* * *

لم يعد هناك حجر فوق حجر فى الشقة ..

ماذا حدث ؟

لقد تجمع البساط الموجود فى الصالة فى كومة واحدة وهذه الكومة صارت فوق الثلاجة ... بينما تكومت المقاعد فى كومة واحدة .. مائدة الطعام مقلوبة ..

الجدران تشقق ملاطها وتغطت بطبقة من مادة لزجة كريهة ..

هناك دم كذلك .. بقع دم لكن ما مصدرها ؟..

قدرت أن ذلك الشىء الذى ضرب الجدران بهذه القوة قد أدمى نفسه ..

باب غرفة المكتب انتزع من مكانه ..

فراشى صار أكثره فوق خزانة الثياب بينما تهشمت المصابيح فى كل مكان .. الكومود تحطم إلى أشلاء بينما التلفزيون على الأرض والدخان ينبعث منه ... الوسائد تمزقت وتناثر ما فيها من قطن كأنها عاصفة جليدية ...

ما كل هذا العنف ؟

باب الشرفة قد انتزع من مكانه .. على الأرجح استعمل للدخول والخروج ..

زجاج مهشم فى كل مكان ...

المطبخ صار تاريخًا سحيقًا حتى تذكرت القصة الصينية القديمة عن الثور الذى دخل متجر الخزف ...

ثور فى متجر خزف ؟

توقفت عند هذه الفكرة طويلاً وبدت لى معقولة .. كأن ثورًا كان طليقًا فى شقتى يدمر ويقلب ويركل ويدوس ...

كنت أرتجف بقوة .. قلبى ذاته يرتجف من الانفعال ..

كيف لم يسمع الجيران هذا كله ؟.. على الأرجح هم سمعوه وافترضوا أنه جزء من حياتى اليومية المعتادة .. تذكرون مشاجرات الكاهن الأخير مع خصومه فى هذه الشقة طبعًا ..

شىء كان هنا ..

شىء مريع كان هنا ..

شىء مريع يمقتنى بجنون كان هنا.....

شىء مريع يمقتنى بجنون وكان يبغى تمزيقى كان هنا ...

ولكن ...

هل رحل حقًا ؟

- 2 -

الشىء الذى يتحرك فى الحمام ليس من مقتنياتى حتمًا .. ليست عندى مقتنيات تتحرك ...

بحثت بالفعل فى كل مكان ولم أجرب الحمام .. هذا الشىء هناك وينتظر ...

أسمع صوته .. أرى ظله يبرز من فرجة الباب لأن ضوء النهار تسلل من النافذة ذات الزجاج المصنفر ...

هناك علبة مسحوق سقطت على الأرض .. صوت قطعة الصابون ... هذا الشىء يبحث فى حماس ..

ربما أمكننى أن أنسحب فى هدوء . أغادر الشقة وأتركه يفعل ما يفعل .. ينتزع المرحاض من مكانه ويهشم المغطس ويثنى (الدوش) إلى كرة معدنية ..

هذا الشىء لا يتفاهم ولا يتحرش ولا ينتهز الفرصة .. إنه جامح كإعصار ..

ربما أمكننى أن .....

* * *

أنت مجنون يا رفعت ..

هل تتوقع أن الشيء الذى فعل هذا كله ينحدر إلى درجة اللهو بقطعة صابون ؟.. أنت قلتها .. هو لا يتفاهم ولا يتحرش .. إنه جامح كثور فى متجر خزف صينى ..

هكذا دنوت من الحمام أكثر متوقعًا نهايتى .. لحظة مؤلمة عابرة أعرف بعدها أننى كنت أحمق ، ثم ينتهى كل شيء لأننى سأجد رأسى على بعد ثلاثة أمتار من عنقى ..

نظرت عبر فرجة الباب فى توجس ..

إنه هناك فعلاً ...

فأر ضخم يقف على رف الحلاقة ويتسلى بمضغ قطعة من الصابون تركتها هناك .. هذه هى تصرفات الفأر فعلاً لا تصرفات ذلك الشيء الذى اقتحم الشقة أمس ...

دخول هذا الفأر مفهوم لأن هذه الأشياء تعبث فى الشرفة ليلاً ، وكان من الطبيعى أن يتسلل أحدها عندما لم يعد هناك باب شرفة ..

برغم قذارة الموقف عامة فإننى شعرت بحب شديد لأخى فى الوجود هذا . كائن حى طبيعى يتكاثر ويأكل ويموت ولا ذنب له فى كونه شرهًا قذرًا مكروهًا ..

دعه ينعم بوقته ولأعد للصالة لأحاول ترتيب أفكارى ..

كيف يمكن إعداد كوب شاى فى هذه الشقة التى اجتاحها إعصار ؟

هذا الشيء جاء من أجلى .. لو لم أذهب للحاجة عفاف من أجل آلام عينها لدخل على وأنا نائم ، وهذا يعنى أن الحاجة عفاف أنقذت حياتى دون أن تدرى ، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ..

يمكن بلا خطأ كبير أن نفترض أنه ذات الشيء الذى مزق الحارس واللص والعاشقين فى المتحف .. إنه الشيء المتعلق بالطوطم الذى رأينا آثار أقدامه على الدقيق ..

ولما كنت أنا صاحب فكرة حرق الطوطم ، ولأننى كنت أنتظر مكالمة (راسم) للتنفيذ فإن من السهل أن نفترض أنه يلاحقنى ليمنعنى من ذلك أو يلاحقنى لينتقم ..

هذه على قدر علمى أول هجمة تتم خارج المتحف ..

لقد أغضبت هذا المسخ عديد الأشكال .. والمشكلة هى أننى لا أضمن التواجد فى أى مكان وحدى بعد اليوم ..

هجماته كانت دومًا ليلية لكن هل هذه قاعدة آمن لها ؟..

هجماته كانت على أشخاص منفردين لكن هل هذه قاعدة ثابتة ؟

* * *

اتجهت إلى الهاتف وطلبت (راسم).. عليه أن يصحو مبكرًا ويدفع الثمن ما دام أيقظنى أمس من .... ماذا أقول ؟.. لقد نسيت أنه لم يكن هو ... لكن ليصح برغم ذلك ..

لم يرد فى البداية فأعدت طلبه بعد نصف ساعة ..

سمعت صوته المرهق يتساءل عمن يتكلم فقلت فى حزم :

- « أنا رفعت إسماعيل .. هذا الشىء خاصتك كان عندى ودمر شقتى .. نعم .. لم ألقه وجهًا لوجه لكن شقتى تبدو كما لو أن إعصارًا اجتاحها ... لا أعرف خطتنا التالية لكنها حتمًا تتضمن حرق هذا الطوطم اليوم .. »

- « لكن ... »

- « يسهل عليك أن تقول ذلك .. يسهل أن تتحدث عن التراث الثقافى الذى لا يقدر بثمن ، أما أنا فأتحدث عن عنقى .. كان من السهل أن تقرأ خبر وفاتى فى صفحة الحوادث ، وتصير لدى المقدم أربع وفيات .. »

الحق أن الموت ذاته لا يثير هلعى لهذه الدرجة ، لولا ما ينتظرنى بعده أولاً ، ولولا مقدماته ثانيًا على رأى الأديب (يوسف السباعى) .. لا أحب أن أجد نفسى ممزقًا على الأرض

وحيًا برغم هذا أتمنى أن أموت سريعًا فلا يحدث هذا .. أن أجد نفسى بين ذراعين قويتين توشكان على تحطيم ظهرى لكنهما لا تفعلان ، والأسوأ أن يتم تحطيم ظهرى فعلاً لكنى أظل حيًا ..

نعم .. فليأت الموت ولكنه موت سريع من طراز (فتح قفل) .. الآن أنت حى ترزق لديك أحلام ومخاوف وهموم .. الآن أنت جثة ..

صمت الرجل طويلاً ثم قال :

- « حسن ... كنت على وشك الاتصال بك على كل حال .. سوف ترتب (ليلى) كل شىء .. سوف نحرق الطوطم فى الصحراء .. لو أردت يمكنك الحضور للمتحف فى الواحدة بعد الظهر .. »

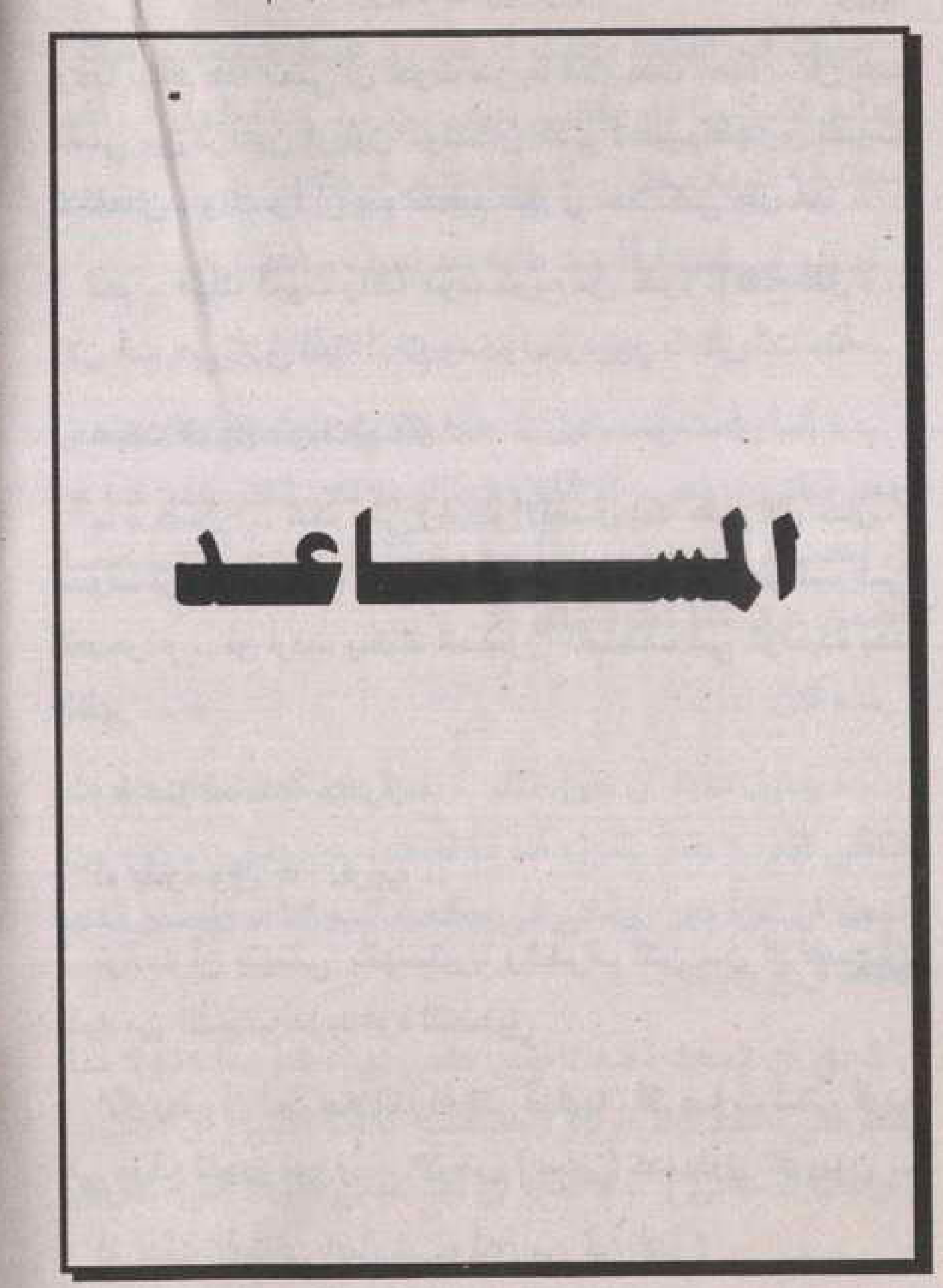
وضعت السماعة مفكرًا ..

لم يقاوم وإن هذا لغريب ..

توقعت أن يتهمنى بالهستيريا والخرف لكن من الواضح أن لديه من الأسباب ما يدعوه للتصديق ...

الآن يجب أن أجد حلاً للكارثة التى أنا فيها ، فقد صارت شقتى أقرب إلى موقع تفجير نووى .. الأرض (صفر) كما يقول الغربيون ..

لو بدأت لأمكننى عمل شىء لكن من أين أبدأ ؟



- 1 -

عندما لحقت بـ (راسم) فى المتحف كانت (ليلى) قد أعدت كل شىء .. إنها ذات كفاءة بلا شك ..

هناك سيارة نصف نقل محملة بعدة (جراكن) من الكيروسين ، وهناك عمال يحملون ذلك الطوطم اللعين ليضعوه فى السيارة ويربطوه بالحبال ..

قال لى (راسم) وهو يدير محرك سيارته :

- « يمكنك أن تركب معى .. سوف يأتى معنا (عاصم).. »

(عاصم) الذى يحب العمل ليلاً.. الرجل الأسطورة الذى تجده دائمًا فى كل مشكلة .. (عاصم) سيفعل كذا .. (عاصم) يمكنه أن يفعل كذا .. نادوا (عاصم) ..

اعتماد هؤلاء القوم عليه يوحى بمزيج فريد من (عنترة) و(أينشتاين) و(جيمس بوند) ..

لم يكن شىء من هذا ينطبق على منظره ، فهو نحيل تعس المنظر له عينان خضراوان معذبتان وشارب كث مضحك يبدو كأنه فرشاة يثبتها فى مكانها فوق شفته العليا .. لو ضحك لسقطت من موضعها ..

هكذا ركب جوار سائق السيارة وانطلق الموكب العجيب نحو الصحراء ..

هناك فى بقعة خالية أنزل العاملان الطوطم .. كم هو جميل ومتقن الصنع .. فعلاً من الخسارة أن نفقده لكن أحداث هذه القصة تشير بأصابع اتهام قوية نحوه .. أغرقاه بالكيروسين ثم أشعل (عاصم) عود ثقاب وقربه من الخشب ..

فلاااااام !

اللهب ينتشر فى الخشب العتيق الذى نحته رجال (أوجيبوا) يومًا ما .. يرتفع للسماء ...

توقعت أن يتحول الدخان إلى شيطان يغطى السماء وينقض علينا وهو يزأر .. توقعت أن تتحرر الوحوش الخشبية وتهاجمنا لتمزقنا .. توقعت أن أسمع صرخة احتضار مريعة ترتج لها الصحراء ..

حسن .. لم يحدث شىء من هذا ..

مجرد خشب يتفحم ..

حتى إن أحد العمال أخرج لفافة تبغ وأشعلها من النار المتعالية ، مما أعطى هذا الحدث الدرامى طابعًا يوميًا سخيفًا ومهينًا ..

مجرد خشب يتفحم ..

فلما انتهينا نظرت لـ (راسم) .. كانت دموع الغيظ فى عينيه لأنه يدرك أهمية ما بدده ، فقلت له مواسيًا :

ـ « على قدر علمى لن يحدث شىء ثانية .. »

الآن صار الطوطم أسطوانة من فحم .. أسطوانة غبية يتصاعد منها الدخان ترقد فوق رمال الصحراء ..

نظر لنا العمال متسائلين ، فقلت لهم وأنا أتجه إلى السيارة :

ـ « هيا .. »

* * *

مرحبًا بكم يا سادة فى متحف (راسم للدراسات الإنسانية) ..

كل شىء صار على ما يرام وعادت الحياة إلى وتيرتها السابقة ، برغم أن علامات استفهام كثيرة ما زالت معلقة .. يشبه الأمر أن تسمع أصواتًا غريبة من صندوق فتحرقه دون أن تكلف نفسك بفتحه .. هكذا تفنى الأصوات ويفنى سرها ..

صحيح أن ذكرى من هلكوا لا تفارق خيال من حضروا تلك الوفيات ، وصحيح أن هناك موضعًا لا بأس به من المتحف صار خاليًا .. هناك يمكنك أن ترى دائرة على الأرض حيث كان ينتصب عامود خشبى عملاق اسمه (الدودم) بلغة (أوجيبوا) ..

قد يسأل أحد الزوار القلائل السكرتيرة عن الشىء الذى كان هنا .. الشىء الذى يحمل اسم (طوطم) كما تقول البطاقة، فتقول ضاحكة :

- « لم يكن أثرًا أصليًا .. نحن نتخلص من أى أثر غير أصلى .. »

وسرعان ما تفر إلى قطعة أخرى من المعروضات ..

مرحبًا بكم يا سادة فى متحف (راسم للدراسات الإنسانية) ..

سوف تجد أن كاميرات المراقبة مصوبة على كل شىء هنا، لكن الشاشات لم تعد فى غرفة المدير، بل تم نقلها إلى غرفة صغيرة فى نهاية قاعة العرض. هناك يجلس (عاصم) الذى يحب أن يعمل ليلاً والذى يطلقون عليه (مساعد المتحف) ..

عرفته (ليلى) السكرتيرة أول مرة عندما كانت بحاجة إلى مقاول يشرف على العمال هنا، ثم اكتشفت أنه يفعل كل شىء .. يحجز تذاكر الطيران .. يصور الأوراق .. يصلح الصنابير التالفة .. يثبت ما تريد تعليقه بعد عمل فتحات بالمثقاب .. وأخيرًا عرفت أنه يجيد إحراق الطواطم الخشبية فى الصحراء ..

هكذا يجلس عاصم وحيدًا فى الحجرة أمام الشاشات، وقد وضع قدمه على المكتب وراح يشرب الكولا الباردة .. راتب لا بأس به ومكان مستقل مكيف .. هذه مهنة لا ينوى التخلى عنها بسهولة ..

ما كان عاصم ليلاحظ الأمر لو لم تكن تلك الحسناء قد دخلت المتحف ..

فتاة ممتلئة من الطراز الذى يروق له، وكانت تلبس عوينات وهو مجنون بالفتيات ذوات العوينات، هكذا اعتدل فى جلسته وراح يتأملها على الشاشة فى حنان .. فى لحظات كهذه يتذكر أنه غير متزوج. إن الفتاة تسحره مع أن رائحتها كريهة نوعًا و ...

رائحتها ؟

ثم فطن إلى أن هذه رائحة جواربه لأنه يضع قدمه على المكتب .. لقد لعب عقله الباطن اللعبة الشهيرة عندما ربط بين الصورة على الشاشة والرائحة الموجودة فعلاً.. رأى ذات مرة فيلمًا بطولة (فيرنا ليزى) وكانت الفتاة جواره فى السينما تضع عطرًا معينًا .. هكذا ظل يعتقد لا شعوريًا أن هذه رائحة (فيرنا ليزى). أنزل قدمه فى شىء من الخجل وراح يراقب الفتاة ..

السكرتيرة تخلى المعرض وتقود الفتاة للباب وهى تضحك ضحكتها المفتعلة .. إنه موعد الانصراف والفتاة تبدو واضحة على الشاشة الأولى التى تظهر مدخل ومخرج المتحف ...

هنا حدث شىء غريب ..

لقد اختفت الفتاة والسكرتيرة من على الشاشة فجأة !

- 2 -

مرحبًا بكم يا سادة فى متحف (راسم للدراسات الإنسانية) ..

إن (عاصم) لم يستطع فهم ما حدث .. لقد صار المتحف خاليًا فجأة مع ظلام شبه دامس على الشاشات كلها . مستحيل أن يحدث هذا كله بسرعة البرق ..

خرج إلى صالة العرض حافيًا ليلقى نظرة .. بالفعل كان المكان قد صار خاليًا لكن الإضاءة لا تتناسب مع الصورة التى يراها ..

هذه الصور التى يتلقاها على الشاشات خادعة إذن ..

كان يشعر بذهول ، لكنه كان بارعًا كما قلنا ولم يكن ليترك شيئًا كهذا من دون أن يفهم ..

كور قطعة من الورق وألقاها على الأرض أمام الكاميرا التى تواجه مدخل المتحف ، ثم هرع لغرفة المراقبة .. فعلاً لا يوجد شىء على الشاشة ....

اتجه للمخزن فأحضر السلم المعدنى ، وحمله إلى ما تحت تلك الكاميرا ، وتسلقه ليلقى نظرة وهو يحمل المفك والبنسة ..

ثمة خطأ هنا .. السلك المتصل بالكاميرا يتصل بسلك آخر لا يعرف مصدره. هو واثق من أنه لا يغذى الكاميرا بالكهرباء ولا يأخذ منها الصور .. هكذا مد يده فى ثبات وقطع هذا السلك ..

هل حدث تغيير ما ؟

هرع إلى غرفة المراقبة ونظر إلى الشاشة ..

الآن يرى أشياء كثيرة .. يرى قطعة الورق المكورة ويرى السلم !.. لقد زالت الغشاوة عن الكاميرا فعادت تبصر !

إنه الآن يفهم ..

« ويجب أن نقبل حقيقة أنه شىء لا يظهر على شاشة المراقبة .. ربما تسبب فى أن الكاميرات لم تر أى شىء حتى الشابين نفسيهما .. »

« لم يرهما الحارس الليلى (رضا) والسبب هو أنه كان جالسًا أمام الشاشات مع (عاصم) الذى يحب أن يعمل ليلاً .. كانا يشربان الشاى ويثرثران بينما الفتى والفتاة يمشيان بين المعروضات .. »

لهذا لا يرى أحد شيئًا ..

هناك دائرة دخيلة تجعل الكاميرات لا تسجل سوى صورة ثابتة للمتحف فى إضاءة ليلية.. هذه الدائرة تبدأ العمل عند إغلاق أبواب المتحف ليلاً .. هكذا يسهر من يسهر يراقب الشاشات فلا يرى إلا صالة عرض خالية خافتة الإضاءة .. فقط لو ثبت عينه على الشاشة كما حدث الليلة للاحظ هذه النقلة المفاجئة فى إضاءة الصورة وفى اختفاء من كانوا فيها .. مثل هذه الوثبة لاحظها منذ مائة عام تقريبًا الخواجة الفرنسى (ميليه) رائد فن الخدع السينمائية ، عندما كان يصور الشارع ثم تعطلت آلة التصوير .. عندما أصلح العطل وعاود التصوير لاحظ عند العرض أن الرجال صاروا نساء فجأة والسيارات صارت حافلات .. إلخ ... هكذا وجد طريقة مثلى لتغيير الموجودات على الشاشة ، وولد فن من فنون الخدع السينمائية ..

كان (عاصم) قد رأى شيئًا غريبًا على الشاشات من قبل ، لكنه افترض أنه مجنون أو أن السهر أرهق عينيه ، وكانت إجابته على كل من يسأله أنه لم ير شيئًا غريبًا .. لكنه كان بالطبع يكذب ...

من وضع هذه الدائرة ؟..

هذه معلومات مهمة يجب أن يعرفها (راسم) ..

هرع إلى جهاز الهاتف ورفع السماعة ثم توقف ..

من الصعب أن تكون هذه الدائرة هنا من دون علم (راسم) .. لكن لماذا ؟

ثمة شىء يحدثه بألا يطلب (راسم) بالذات ..

بحث عن الرقم الآخر الذى احتفظ به ، وطلب (رفعت إسماعيل) . من الممكن أن يطلب المقدم (خيرى) لكنه لا يريد أن يقحم رجال الشرطة فى هذا الأمر ثم يتضح أنه واهم .. (رفعت) يبدو ملمًّا بالقصة ولا خطر منه لو تضايق ..

رددت على الهاتف بينما البواب مع أم (شخص ما) التى تتولى تنظيف شقتى يفرغان من آخر لمسات نظافة الشقة بعد ما أصابها. سوف أحتاج إلى كهربائى وسباك ونقاش .. ربما أحتاج إلى شقة أخرى ..

فوجئت بأن هذا هو (عاصم) الذى يحب أن يعمل ليلاً ، وفوجئت أكثر عندما عرفت أنه مذعور ..

أما ما حكاه لى فكان أغرب وأغرب ... لابد أن يعرف المقدم (خيرى) هذه المعلومات الجديدة .. ما هاجم الضحايا لم يكن خفيًا بل كان مخفيًا .. فمن أخفاه ولماذا ؟

طلبت منه أن يحتفظ بما قاله سرًّا ووعدته أن أمر عليه صباحًا لأننى مشغول ..

* * *

ما حدث بعد هذا أقوله مستندًا إلى خيالى ، لكن لا يمكن أن يكون قد وقع بطريقة أخرى ..

أعرف أنه جلس يراقب الشاشة وهو لا يصدق هذا الكشف الجديد ..

كان الحارس الليلى غير موجود لكنه سيأتى بعد قليل .. سوف يمضى الأمسية معه وهذا يخفف من توتره قليلاً ..

أعرف أنه ظل طويلاً هناك ولربما أعد لنفسه بعض الشاى وهو لا يرفع عينه عن الشاشة ، ولربما داعب شاربه المضحك عدة مرات وهو يتأملها بعينيه الخضراوين ..

أعرف أنه كان شارد الذهن ، ثم وقعت عيناه على شىء يتحرك ..

دقق النظر أكثر فلم يصدق ما يراه ...

هناك عند باب المتحف الرئيس ..

شىء يتحرك .. يدخل نطاق الشاشة الثانية ، من ثم اختفى تمامًا .. إن (عاصم) لم يقطع الأسلاك عن جميع الكاميرات لكن فعلها مع كاميرا واحدة فقط ..

كان هذا خطأ ..

النتيجة هى أن هذا الشىء يتحرك وهو لا يعرف مكانه .. لا يعرف إن كان يقترب أم يبتعد ..

رفع سماعة الهاتف وطلب المقدم (خيرى).. لا يوجد خط ..

طلب الشرطة ...

122 .. ارفع السماعة يا حضرة الصول ..

122 ...

هلم .. أنا لا أعرف أين هذا الشىء ...

لا يعرف (عاصم) أن هذا السيناريو حدث بالضبط من قبل مع رجل اسمه (عامر) ..

- « آلو .. أنا مساعد متحف (راسم للآثار الإنسانية) ... لا .. ليس متحف الآثار الإسلامية .. إنسانية .. إنه فى الجيزة .. لابد أن عندكم ملفًا كاملاً عنه يا أخى .. اسمع .. هناك خطر .. خطر داهم يدنو منى هنا .. اسمى (عاصم).. إنه داخل المتحف لكن لا أعرف أين هو بالضبط .. صدقنى لا أعرف ما هو .. إنه ... »

رأى الظل يرتسم على الجدار وسمع ضحكة انتصار وحشية مدوية ..

استدار للخلف ولم يدرك من قبل مدى ضخامة هذا الشيء ..

صرخ .. وصرخ ...

هذا ما فعله بالتأكيد وما سمعه رجل الشرطة عبر الهاتف قبل أن تمتد تلك اليد المخلبية وتنتزع قلبه .. قلب (عاصم) لا رجل الشرطة طبعًا ....

مرحبًا بكم يا سادة فى متحف (راسم للآثار الإنسانية) ..

* * *

الزوجة

- 1 -

لم أنتظر حتى تكتمل التحقيقات ، وركبت سيارتى مبتعدًا وأنا أشعر بأننى موشك على الاختناق..

كدت أدهم ولدًا على دراجة لأننى كنت شارد الذهن أتصرف بعصبية غريبة.. ثم أوشكت على أن أدخل بمقدمة السيارة فى حافلة تتحرك أمامى .. الحق إننى كنت مزيجًا فريدًا من الحنق والغيظ والدهشة والغباء..

أخيرًا توقفت إلى يمين الطريق ، وترجلت من السيارة واستندت على الكبود مفكرًا. أنا بحاجة لاستجماع أفكارى قبل أن أجد نفسى فى المشرحة بعد حادث مروع ..

هكذا يمكن القول إن الطوطم ليس هو ما يولد هذه الأحداث .. لم تولد تلك المسوخ منه. أنا تعاملت مع النار كثيرًا وأعرف أنها غالبًا تزيل كل شىء ، فلا تتوقع أن الطوطم ما زال قادرًا على أن يقتل ذلك الشاب التعس الذى يحب العمل ليلاً ..

لقد اتصل عاصم بى .. كان بوسعى أن أفعل شيئًا .. ربما ...

لقد انتزع هذا الشىء قلبه .. فجوة هائلة بين الضلوع ولا يوجد قلب .. هذا يعنى أن ذات الشىء ذى القوة الخارقة فعل ذلك .

المقدم قال لنا إن هناك مكالمة غامضة سمعها رجال شرطة النجدة .. عندما تحركوا وعندما وجدوا المتحف أخيرًا ، كان الحارس الليلى الجديد هناك فى حالة يرثى لها من الانهيار العصبى ، لأنه عاد من شراء العشاء ليجد (عاصم) فى هذه الحالة ..

يبدو أنهم اتصلوا براسم فلم يجدوه ، فانتظروا حتى رد عليهم ، وسرعان ما جاء وهو فى حالة من الجنون .. لقد افترض الجميع أن الكابوس انتهى فى الصحراء .. هذا لعب لا يخلو من الغش ..

كنت أفكر ....

موضوع الدوائر التلفزيونية التى تعطى صورة زائفة .. ما معناها ؟.. من وضعها ؟.. ما مصلحته ؟

أسئلة لا جواب عنها حاليًا ...

هذا الفتى (عاصم) كان عبقريًا فعلاً ، ولو لم يلحظ هذا لما لاحظه أحد ..

الساعة الآن العاشرة صباحًا .. هناك الكثير من المهام على عاتق (راسم) ولا يمكن أن يعود لداره الآن ...

بحثت فى جيوبى حتى أخرجت بطاقة صغيرة .. بطاقة دون عليها عنوان مسكن عاصم فى الهرم ..

ركبت سيارتى وأخذت شهيقًا عميقًا .. سيكون على أن أكون مقتنعًا وهذا عسير لكننى سأحاول ...

* * *

كانت فيلا من طابقين حديثة البناء.. هذا هو البيت الذى انتقل إليه بعد قضاء أشهر فى أحد فنادق القاهرة الفاخرة .. فيلا فاخرة لكنك تعرف هذا الطراز من المبانى التى لا ينتهى العمل فيها أبدًا .. هناك أكوام من الرمل والزلط وخرطوم مياه وقرميد فى أية لحظة ، بحيث أنك لا تستطيع فى أية لحظة أن ترى مشهدًا نظيفًا مريحًا للعين ... هذا يذكرنى بالقاهرة .. فى أية لحظة هناك أشياء تهدم وأشياء تبنى فلا تأتى أبدًا لحظة الاكتمال .. لحظة أن تنظر وتشعر براحة ...

هناك كلب فاخر المنظر يرمقنى فى شك ، وبواب أسمر يلبس قميصًا وسروالاً يهرع ليفتح لى جنزير البوابة ويمسك بالكلب إلى أن أمر ...

تفتح لى الباب خادمة حسنة الهندام على قدر من الرقى ، فأسألها عن السيدة (أبو سيف).. (فكتوريا أبو سيف)... (فيكى) ..

- « قولى لها إن اسمى د. (رفعت إسماعيل) .. صديق زوجها .. »

- « المدام نائمة الآن .. ليس بوسعى أن .... »

- « دعيه يا فاتيما .. »

ورفعت رأسى لدى سماع هذا الصوت الذى ينطق العربية بلهجة أجنبية تمامًا .. لم أر المدام إلا مرة واحدة منذ عام ونيف لكنى لم أنسها قط لسبب واحد هو أننا لا ننسى مقابلة سرطان بحر مسلوق بهذا الحجم أبدًا ..

كانت واقفة خلف الخادمة بثياب كاملة تدل على أن موضوع النوم كذبة .. فقط كانت تتنصت لتعرف من القادم ..

هكذا أفسحت (فاتيما) (فاطمة) طبعًا الباب لى لأدخل وهى ترمقنى بكراهية . كأنها تقول لى : سأسامحك هذه المرة من أجل السيدة ، لكن لو رأيتك فى ظروف أخرى لأحرقتك بالنار ..

مدت السيدة يدًا عظمية حذرة تصافحنى ، ثم دعتنى إلى لوبى صغير . هناك كان بار عليه زجاجة فيها (هباب ما) وبعض الكئوس ، ومقعد عال مما يستخدم فى البارات ، فجلست واضعة ساقًا على ساق وفى يدها كأس مليئة ، ومدت يدها تستكمل لفافة تبغ كانت تدخنها ..

أفى هذه الساعة ؟.. معلوماتى أن من يبدأ احتساء الخمور منهم فى العاشرة صباحًا هو شخص فى مشكلة إدمان شنيعة . هذه السيدة تبدو كأنها تمثل دور العصابية مدمنة الكحول فى فيلم أمريكى ..

ربما هى اليزابيث تايلور فى (من يخاف فرجينيا وولف ؟) .. لابد أنها تتعاطى الأقراص المهدئة كذلك ، وسوف تنتحر يومًا ما بجرعة زائدة .. هذه أمور تأتى معًا كعبوة متكاملة ..

رفعت كأسها متسائلة إن كنت أريد فهززت رأسى أن لا ..

قالت وهى تمتص الكأس :

ـ « د. (إسماعيل).. أنا أذكرك منذ ذلك اللقاء .. زوجى يذكر اسمك كثيرًا ... »

ـ « أرجو ألا يكون هذا فى صيغة الذم .. »

ـ « أوه نو .. نو .. إن (راسم) يحب الأذكياء وأنا لست منهم .. »

وملأت كأسها ثانية وقالت بلهجة شاردة :

ـ « سكرتيرته (ليلى) ذكية .. أنت ذكى .. أمه الهندية ذكية .. »

هنا بدأت أتصلب ..

هذه المرأة مدمنة خمر ، ويبدو أن تعبير (حلت الخمر عقدة لسانه) دقيق جدًا ..

إنها ستقول أشياء مهمة .. أشياء كثيرة جدًا .....

- 2 -

قالت (فيكى أبو سيف) بلكنتها الملتوية ، وخصلات شعرها الأحمر المعجون بالعرق والتعاسة تغطى عينها :

ـ « أبو (راسم) يُدعى (محمود أبو سيف) .. مهاجر مصرى جاء إلى الولايات بحثًا عن فرص .. فى هذه الوقت كانت الولايات عطشى بحاجة إلى المهاجرين وكانت الفرص كثيرة. كما يحدث معكم معشر العرب كثيرًا تكون هناك طاقات هائلة تنتظر الانفجار فى الغربة ، والكل يعرف كيف يعمل العربى بلا راحة ولا لحظة تعب فى الغربة حتى ليثير دهشة الغربيين وذهولهم ، بينما لا يفعل فى بلاده شيئًا سوى الجلوس على المقهى وتدخين النارجيلة. وقد نجح الرجل فى أن يفتتح سلسلة مطاعم ذات طابع شرقى فى (نورث داكوتا) وصار ثريًا .. هنا قابل (أماليا جيسون) وهى سكرتيرة سمراء رقيقة يبدو أنها ذكرته ببنات بلده مصر ، وقد وقع فى حبها وتزوجا فعلاً.. يبدو أن هذه الأسرة مولعة بالزواج من السكرتيرات !...

« السبب الذى جعل ملامح (أماليا) تذكره بالمصريات هو أنها تنتمى لأصل هندى .. قبيلة (أوجيبوا) التى كانت تتخذ هذه الولاية موطنًا لها صارت أقلية تتركز فى جبال السلحفاة ، وعند الحدود الكندية .. كانت (أماليا) تنحدر من هذه القبيلة وكانت لها

عادات غريبة فى المأكل والمشرب .. على فكرة لم تكن مسيحية ولم تعتنق الإسلام .. يبدو أنها ظلت حتى النهاية تمارس ديانات هؤلاء القوم الوثنية. يقال إنها كانت عالية المكانة بين قومها لأنها تنحدر من نسل زعيم مهم، ويقال إنها تحتفظ بلفافات غريبة وأعشاب أغرب، وإنها تنشد بتلك الطريقة الهندية فى ليال قمرية بعينها .. لكن المؤكد أن (محمود أبو سيف) لم يهتم بهذه الأمور كثيرًا ولعله وجدها مسلية ..

« توفى (محمود) فى حادث سيارة بينما ابنه (راسم) فى الخامسة من عمره، وهكذا وقعت مسئولية التربية على الأم .. ومنذ ذلك الحين عاشت وابنها فى بيت فاخر تحيط به البرارى، ولم يعتادا الظهور ولم يزورا بسمارك قط .. أعتقد أنها كانت تستعمل معه العربية أحيانًا كى لا ينساها لهذا يتكلم (راسم) عربية رديئة جدًا لكنه لم يفقدها .. لاحظ أن امه تعلمت العربية من أبيه ..

« راسم ورث براعة أبيه فى الأعمال، وصار ذلك الشاب الرياضى الوسيم الذى تراه ..

« عرفنى فى أحد أندية البولنج، وسرعان ما وقعت فى غرامه وباقى القصة معروف على كل حال .. لم ننجب ولعل هذا خير قرار اتخذته الأقدار بصددنا ..

« صار لنا بيتنا الجميل ولم تضايقنا أمه كثيرًا .. كانت ميالة إلى الصمت ومراقبة الأمور .. ولم يجد جديد إلا منذ عامين عندما توفيت الأم بالسرطان ...

« بمجرد انتهاء إجراءات الدفن والعزاء أعلن (راسم) أنه قد سئم الولايات .. قال إنه صار يكره ذلك البلد بشدة ولم يعد يربطه به سواى، وطلب منى أن أهاجر معه إلى مصر ..

« بصراحة لا أفهم سبب هذا التغير المفاجئ فهو كان من عشاق الولايات قبل وفاة أمه .. كان ممتنًا لأمريكا وكان يردد : فقط فى هذا البلد يمكن لمهاجر فقير أن يصير مليونيرًا وصاحب مؤسسات .. لقد أعطانى هذا البلد الكثير .. إلخ ... فجأة صار هذا بلدًا كريهًا مصاصًا للدماء، وسرعان ما رتب كل شىء وسوى أعماله هناك .. لم يكن لدى سبب يدعونى للبقاء فى الولايات لذا جئت معه إلى مصر ..

« فقط قبل السفر تأكد من شحن عدد من القطع الأثرية بعضها كان فى مجموعته وبعضها حصل عليه .. قال إنه يزمع أن يقيم متحفًا فى مصر .. »

الآن صرت أعرف القصة كلها تقريبًا .. هذه المرأة كنز حقيقى ..

فرغت الزجاجة فصبت لنفسها كأسًا من زجاجة أخري وأشعلت لفافة تبغ .. لم أنصحها بالتوقف لأننى فى حاجة إلى ثرثرتها ..

ـ « إذن (راسم) ذو أصل مصرى هندى أحمر ؟ »

ـ « هو كذلك .. إنه هندى من ناحية الأم .. »

فكرت قليلاً ثم سألتها :

ـ « هل كانت له علاقة بأى من هنود (أوجيبوا) هؤلاء ؟ »

ـ « فقط بعد وفاة أمه كان بعض ذوى العرق الهندى يزوروننا وهم قوم صموتون متجهمون كالعادة .. لكنى لا أعرف سبب زيارتهم .. فيما بعد قال (راسم) إنهم ينهون مفاوضات بيع الطوطم .. إنه يخصهم وهو قطعة أثرية مهمة .. »

* * *

لم تكن هناك أشياء غريبة أكثر من اللازم فى الأيام السابقة للسفر ، حتى جاءت تلك الليلة .. كانت قد ذهبت لزيارة صديقاتها ولعب (البينجو) وهى لعبة سخيفة تعجب الأمريكيات جدًا وكان من المقرر أن تعود فى ساعة متأخرة ، لكنها شعرت بذلك الحافز الذى دفعها إلى العودة مبكرًا ..

رأت البيت من بعيد فارتجفت رعبًا ..

هناك مشاعل فى الحديقة !.. أوقفت سيارتها على جانب الطريق ودنت بحذر أكثر واسترقت النظر من بعيد .. من وراء شجرة عند أول الطريق ..

هناك عدد من الرجال . يلبسون ثيابًا عصرية لكن ملامحهم تشى بأنهم من الهنود .. الشعور الطويلة والوجوه المتصلبة .. هناك فى مركز الدائرة يقف (راسم) .. (راسم) زوجها بالذات .. صحيح أنه يبدو أطول وأكثر إثارة للرهبة فى ضوء المشاعل المتراقص لكنه زوجها ..

لا يبدو سعيدًا بما يفعل .. يبدو مرتبكًا .. غير واثق من نفسه ..

الرجال ينشدون شيئًا بصوت خفيض ثم يجثون على ركبهم .. بالواقع هم يسجدون بالكامل ممرغين رءوسهم فى التراب . من أجل من ؟.. من أجل زوجها !

هل السبب هو مكانة والدته بينهم ؟...

هل انتقل له ميراث تقديس ما ؟

إنه يبدو غير سعيد على الإطلاق .. الأمير الذى لا يريد العرش لكنه مرغم عليه بعد وفاة أبيه ...

باختصار : كان الموقف غريبًا رهيبًا ...

كان هذا كافيًا لها .. ركبت سيارتها وانطلقت عائدة إلى صديقاتها ..

لم تطلب تفسيرًا ولن تطلب . لكن هذا المشهد بالتأكيد لا يفارق خيالها حتى اليوم .. ولعلها تحتسى الخمر محاولة أن تنسى كل هذه الاضطرابات ..

كنت أصغى محاولاً الفهم ..

فى النهاية وجدت أننى أطلت استجوابها فنهضت شاكرًا لها تعاونها معى ..

شكرتنى بشدة على ما قدمته لها .. قدمته لها ؟.. أنا لم أقدم لها أى شىء .. هى ظلت تتكلم منذ جئت حتى هذه اللحظة ... لكن الخمر جعلت الأمور تختلط عليها أو هى كانت فى حاجة لمن يصغى .. أحيانا نقدم خدمة عظيمة للآخرين بأن نصغى لهم فحسب ..

لا أعرف ...

قالت لى وهى توصلنى إلى الباب :

ـ « عدنى يا د. (إسماعيل) أن تخبرنى .. »

ـ « طبعًا .. لكن مهمتى ستكون أسهل لو أخبرتنى بأى شىء أخبرك .. »

ـ « لو سمعت أو عرفت أنه تزوج هذه السكرتيرة فعليك أن تخبرنى .. فى الولايات يمكننى أن أزج به فى السجن لو فعلها ، لكن الأمور تختلف فى مصر .. أنا أعرف أنه يقابلها كثيرًا .. كم من ليلة خرج فيها وأنا نائمة ولم يخبرنى بشىء ... لكنه كان يأخذ مفاتيح المتحف من درج (الكونسول).. أنا أعرف هذا .. »

واقفة على الباب لا تقوى على أن تظل واقفة من دون أن تستند إلى الجدار ، والكأس فى يدها ، وشعرها يغطى وجهها بالكامل .. رائحة الخمر والتبغ تفوحان منها ... ثملة فى الثانية عشرة ظهرًا ...

هذه المرأة قد انتهت أو كادت ..

لا أحسب زوجها سيجمع بينها وزوجة أخرى .. على الأرجح سيتخلص منها أولاً ..



- 1 -

حاملة بعض التقارير والأوراق التى تنتظر توقيعه اقتحمت (ليلى) مكتب (راسم) كعادتها ..

لم تجده .. إن هذا غريب .. لقد دخل أمامها ولا يوجد باب ثان ..

أصابها الذعر ودارت حول المكتب بسرعة ، لتجده فى أغرب وضع ممكن .. كان يجلس منكمشًا على نفسه تحت المكتب وكأنه طفل مذعور .. الأهم أنه كان يبكى ..

بالفعل طفل مذعور .. يقولون إن الرجل لا يتحمل دموع المرأة لأنه يضعف على الفور ، والحقيقة أن هذا القول ينطبق على المعسكر الآخر .. داخل كل امرأة أم لا تطيق أن ترى طفلاً يبكى ، فماذا عن رجل بالغ ؟.. احتضنته مهدئة فى مزيج من الحنان والقلق .. لو كان قد جن فهذا أسوأ وقت ممكن ..

ـ « مستر (راسم).. ماذا حدث ؟ »

راح يرتجف كأن مسًا كهربيًا أصابه ، ثم فجأة ثاب لرشده ..

نظر لها بعينين تقطران دمًا وتشعان شررًا ، وصاح :

ـ « ماذا تفعلين هنا ؟.. أية وقاحة ؟ »

وتملص من ذراعيها لتجد أنها جالسة على الأرض عند قدميه ، وهو يكلمها بفظاظة .. ضخمًا مرعبًا عندما تراه من منظورّ عين النملة هذا .. تكاد تشعر أن حذاءه البراق الأنيق هو الذى يتكلم ..

قال لها بغضبة رهيبة (وهى ترى غضبته لأول مرة) :

ـ « آنسة (ليلى).. هناك شىء يدعى الخصوصية .. ليس من اللائق أن تقتحمى المكتب بلا استئذان فى كل مرة .. »

للمرة الأولى يناديها بآنسة ...

كان عقلها يعمل بسرعة .. هذا الرجل مصاب بمرض عضال .. ربما هو مرض عقلى كذلك .. لقد اقتحمت خلوته فى أسوأ لحظة ممكنة وهو غير مستعد أن يغفر هذا ..

نهضت وسوت ثيابها .. كلا .. هى لم تهزم .. لن تهزم ..

قالت بصوت رفيق حنون :

ـ « (راسم).. أنت تعرف أننى أهتم بأمرك كثيرًا .. هذا يفوق اهتمام سكرتيرة برئيسها .. الكل يعرف هذا .. »

نظر لها بوجهه الأسمر الجاف فى عدم فهم ، فقالت :

ـ « ليست علاقات العمل كل شىء .. أحيانًا تبحث الفتاة عن رجلها فتكتشف أنها تأخرت بعض الوقت وأنه متزوج .. فماذا تفعل ؟ »

كانت رائعة الجمال وهى تقول هذه الكلمات ، فلو كان رجلاً آخر فى ظروف أخرى لضعف ، لكن (راسم) لم يكن رجلاً آخر فى ظروف أخرى ..

للمرة الأولى تقلص وجهه وقال فى غيظ :

ـ « هل سمعتك تنادينني بـ (راسم) ؟ »

ـ « وهل سمعتك تنادينى بآنسة (ليلى) ؟.. »

ـ « أناديك كما أريد .. هل تعرفين السبب ؟ »

ـ « لا .. »

قال وهو يشير نحو الباب فى حزم :

ـ « لأننى صاحب العمل ويمكننى طردك فى أى وقت وليس بوسعك عمل شىء .. والآن أكون شاكرًا لو خرجت من هنا وكففت عن ترديد هذا الهراء .. »

حملت الأوراق واتجهت للباب ، عالمة أن لديها رصيدًا هائلاً من الذهول والحزن عليها أن تلتهمه وحدها فى مكتبها .. هناك طن من الكرامة الجريحة سوف تضمدها لساعات طويلة .. لكن ليس الآن .. ليس هنا .. هى لم تعتد الفشل ولا تقبله لأنه من طراز (الخاسر السيئ) لكن لا وقت لهذا الآن ..

ـ « لحظة .. »

استدارت آملة أن يعتذر لها أو يقول شيئًا لطيفًا ، لكنه قال :

ـ « اتركى هذه الأوراق .. ألم تجلبيها للتوقيع ؟ »

ـ « بلى يا مستر (راسم).. »

ـ « إذن ؟..... »

غادرت المكتب متظاهرة بأنها لم تتلق إهانة ما ، وعادت إلى مكتبها ..

كانت على يقين من شىء واحد .. لقد دخلت عليه فى أقل الأوقات الملائمة له .. لماذا ؟.. بالطبع لا يقبل أى إنسان أن يراه الآخرون يبكى تحت مكتب ، لكن غضبته التى لم تعتدها من قبل تبدو رد فعل مبالغًا فيه ..

كلا .. هى لم تفشل ..

من المستحيل أن تفشل بعد كل هذا الإعداد ..

ـ 2 ـ

تجلس فى غرفتها على الفراش تتأمل صورة لها مع (راسم) يوم افتتاح المتحف . يضحك من قلبه وقد أمسك يدها بحركة طبيعية تلقائية وكان يتكلم .. كان يقول لـ (عاصم) الذى التقط الصورة :

ـ « هذه لا أستطيع ولا أجرؤ على العمل يومًا واحدًا من دون مساعدتها .. »

ماتت هذه الكلمات كما مات (عاصم) البارع صديقها العزيز .. لقد تعرض الرجل (راسم) لضغط عصبى كفيل بهدم جبل ومن المنطقى أن يتبدل ويصير عصبيًا .. لكن ما ذنبها هى ؟

هناك لغز يحيط بـ (راسم) ويحيط بالقصة كلها ..

هنا دق جرس الهاتف فهرعت ترد ...

ـ « هالو .. »

كان المتكلم هو (راسم) وقد شعرت بوجيب فى قلبها عندما سمعت صوته المميز ، وصعوبة نطقه للغة العربية :

ـ « أنت ساهرة ؟ »

ـ « ماذا تظن ؟.. تحت أمرك يا مستر .. »

قالتها بلهجة السكرتيرة الجاهزة لطباعة المذكرات والتقارير فى أى وقت ..

عرفت ما سوف يقول .. وانتظرته وقلبها يخفق لكنها لم تظهر أى شىء :

ـ « أنا كنت فظًا معك صباح اليوم .. تعرفين أننى أمر بضغوط نفسية هائلة. هذه الوفيات توشك على تدمير المشروع تمامًا .. تعرفين كذلك أنك مهمة لى .. أنت indispensable .. »

قالت بسرعة وفى حزم مفتعل :

ـ « أوكى . أوكى .. آسفة .. أنا قد تجاوزت حدودى .. »

قال كما توقعت تمامًا :

ـ « أنا مصر على جعل الاعتذار عمليًا .. كم الساعة الآن ؟.. التاسعة مساء .. ما رأيك فى العشاء معى فى ذلك المطعم الذى ذهبنا له من قبل فى الهرم ؟.. لقد راق لك بشكل خاص .. »

فكرت حينًا ثم قالت فى تردد مفتعل :

ـ « موافقة .. ليكن ... »

ـ « إذن نلتقى فى المتحف بعد ساعة sharp.. »

ووضع السماعة ..

لماذا يجب أن تذهب للمتحف أولاً ؟.. هناك طرق أخرى لتقصير المسافة ..

على كل حال يجب أن تسرع لأنها ستتبرج بالكامل وهى عملية شديدة التعقيد ، ثم سوف تبحث عن ثياب أنيقة مناسبة وليس لديها الكثير .. طلاء أظفار .. غسيل وجه .. شعر .. تبًا !... لماذا كانت حياة النساء معقدة بهذا الشكل ؟

كانت تركض فى الصالة مسرعة نحو الحمام والمنشفة على كتفها ، وسألتها أمها فى دهشة :

ـ « هل تخرجين ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « ليس من عادتك أن تخرجى فى ساعة كهذه إلا فيما ندر .. »

ـ « هذه من تلك الساعات النادرة .. »

ـ « أنت ذاهبة للقاء هذا (الخواجة) المتزوج.. »

ـ « طبعًا ... »

ـ « وما من سبيل لمنعك أو سماع نصيحتى ؟ »

ـ « لا سبيل .. »

وقبل أن تواصل الأم الكلام كانت قد توارت فى الحمام وأغلقت الباب خلفها ..

لديها من المشاكل ما يكفى من دون حاجة للتبكيت واللوم وسيل المواعظ المعتاد. هى لن تطلب منه شيئًا .. هو من سيطلب .. لن تؤذى زوجته لكنها لا تضمن ألا يؤذى هو زوجته..

« هل أنا حارس أخى؟ » .. لا تعرف هذه العبارة ولا قائلها لكنها تنطبق بالكامل على موقفها ..

* * *

مرحبًا بكم يا سادة فى متحف (راسم للدراسات الإنسانية)..

توقفت سيارة الأجرة أمام المتحف فترجلت ليلى ونقدت السائق أجره ..

كانت سيارة (راسم) واقفة هناك بالفعل بما يعنى أنه سبقها ..

فى هذا الظلام يبدو المتحف بحديقته السوداء المظلمة كأنه كابوس أو لقطة من فيلم رعب .. ظلام وسواد ما عدا إضاءة خافتة تتسرب من النوافذ الزجاجية .. دعك من كل ما حدث فى هذا المكان ، مما يجعل دخوله ليلاً غير محبب على الإطلاق.. لابد أن الحارس الليلى غير موجود ما دام (راسم) طلب لقاءها

هنا .. إن الحراس الجدد موشكون على الاستقالة بدورهم وقد صاروا يتغيبون عن السهر عمدًا ..

قطعت الممر الذى يتوسط الحديقة وهى تلهث انفعالاً ، ثم وقفت أمام الباب الرئيس الموصد وبحثت عن المفاتيح فى حقيبتها .. تبًا !.. لقد نسيتها فى البيت ..

هكذا راحت تدق على الباب الحديدى عدة مرات وتنادى :

- « مستر (راسم) .. مستر (راسم) ! »

لا يرد والظلام دامس مخيف .. لن تقف هنا للأبد ..

أين يمكن أن يكون سوى فى مكتبه ؟.. مكتبه يطل على الحديقة . هكذا راحت تجد السير وسط الأرض الموحلة قليلاً وقد ضايقتها فكرة أن حذاءها انتهى .. لابد أن تنظفه جيدًا بمنديل ورقى شبه مبتل ، وبرغم هذا لن تكون النتيجة مرضية خاصة حيث هى ذاهبة ..

أخيرًا بلغت النافذة التى تطل على المكتب والتى تدعمها شبكة حديدية ، لكنها تظهر ما بالحجرة . رفعت يدها لتدق على الزجاج .. سوف يسمعها بالتأكيد ..

لكنها توقفت ..

ترى ما بداخل المكتب فى الضوء الخافت .. ترى ما يتحرك بالداخل ..

كانت أعصابها قوية جدًا لذا لم تصرخ أو تفقد الوعى .. فقط تساءلت : ماذا لو كانت المفاتيح معها ودخلت ؟..

عليها أن تنسحب ببطء .. ببطء ...

يجب أن تخرج إلى الشارع ..

هكذا عادت تجد السير فى الوحل والظلام ، وخطر لها أنها لو هوجمت هنا لكانت نهايتها لأن الوحل يوشك أن يصير صمغًا ..

أخيرًا خرجت من الحديقة ، فعبرت الشارع مسرعة ..

سيارة أجرة مارة فأشارت لها بلهفة حتى أنها كادت تلقى بنفسها تحت العجلات. لو لم يسمح لها بالركوب فعليه أن يدهمها وينقل أشلاءها للمشرحة ..

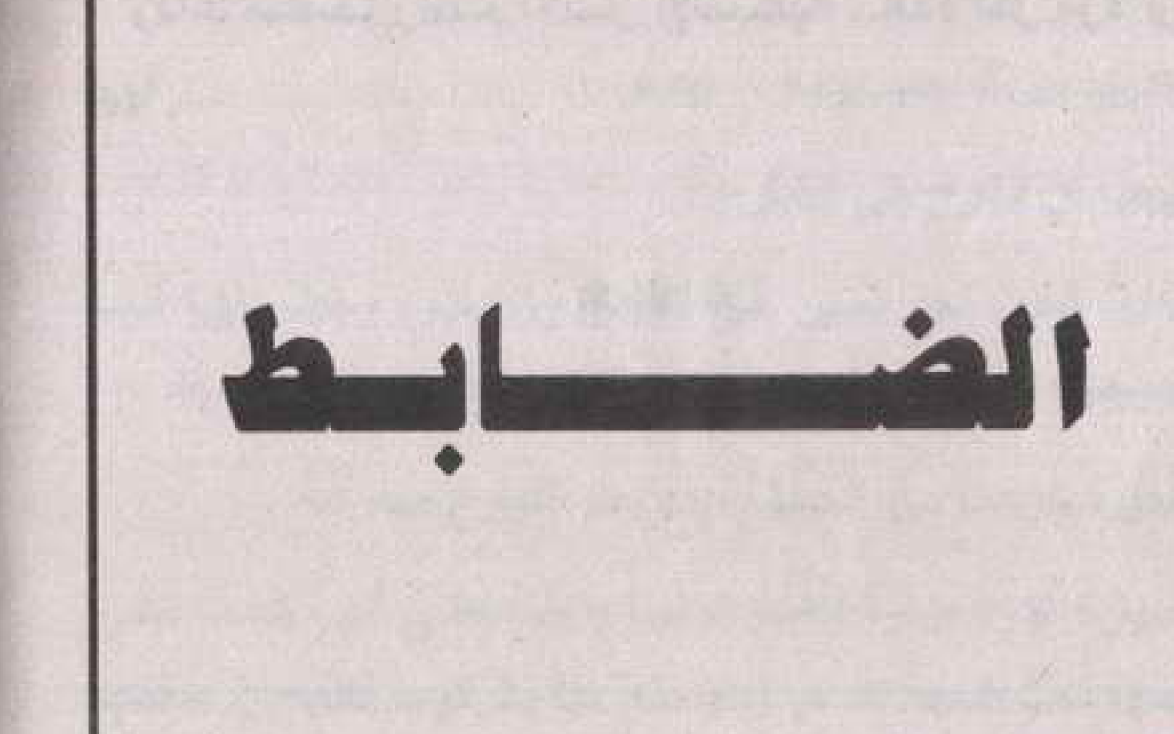
تذكرت أفلام (ماجدة) و(فاتن حمامة) القديمة عندما كانت البطلة البريئة تذهب للقاء حبيبها.. ثم تكتشف فى اللحظة الأخيرة أنه ذئب وتفر .. هذا تقريبًا ما حدث الليلة لكنه حدث حرفيًا !!

ارتمت فى المقعد جوار السائق لأنها لم تجد الشجاعة كى تجلس فى المقعد الخلفى .. بينما السيارة تعاود التحرك ، ذكرت له

عنوان دارها ، وألقت نظرة أخيرة على بناية المتحف المظلمة الجاثمة فى الظلام كالكابوس .. وتخيلت ما يدور بين هذه الجدران ...

وداعًا متحف راسم للآثار الإنسانية ..هذه آخر مرة أراك فيها ...

* * *



- 1 -

أشعل المقدم (محمد خيرى) لفافة تبغ أخرى ، ثم وضع ساقًا على ساق وكرر سؤاله من جديد :

- « الناس لا ترحل هكذا من دون سبب .. لقد قيل لى إنك اختفيت دون أن تقولى لمه .. هذا أثار ريبتى خاصة مع كل هذا الظلام الذى يحيط بالقضية كلها.. لهذا بحثت عن عنوانك وجئتك لأفهم .. »

نظرت (ليلى) للفافة التبغ المشتعلة . هى لا تطيق التبغ .. لا تطيق الاستجواب .. وطبعًا لا تطيقنى ..

لابد أننى بدوت كغراب البين وأنا جالس صامتًا أرمقها فى ثبات .. تلك العوينات الجديدة السميكة تجعل عينى تبدو كعينى بومة .. أنا شخصيًا انزعج من نظراتى فى المرآة ولا أشعر براحة ..

كررت (ليلى) إجابتها السابقة :

- « هذا شأن خاص .. »

قال المقدم بطريقته الثابتة الهادئة :

ـ « دعينى أذكر الاحتمالات .. وجدت عملاً أفضل وهذا صعب أو خطيبك يصر على أن تتركى العمل ، أو أن صاحب العملّ أهانك أو ضايقك .. أو أن لديك ظروفًا بيتية ترغمك على عدم العمل .. »

ابتسمت فى برود ، وقالت :

ـ « لا شىء من هذا .. »

رشف رشفة من كوب الشاى الذى أحضرته له ، وقال :

ـ « هذا مؤسف .. كنت آمل أن تعطينى بعض الضوء .. لكنى سأساعدك قليلاً.. أنا لم أترك المتحف دون رقابة ، وقد أوصلك أحد رجالى منذ أيام عند خروجك من المتحف .. يقول إنك كنت تجرين وإن حذاءك كان موحلاً حتى إنه أتلف دواسات السيارة ، وإنك كنت فى حالة ذعر غير عادية ... المثير فى الأمر أن الساعة كانت العاشرة مساء ... ! .. هل ينعش هذا ذاكرتك ؟ »

من جديد هو يعرف الكثير جدًا لكنه يفضل سماع ما يقوله الطرف الآخر .. قالت فى ذهول :

ـ « إذن سائق التاكسى لم يكن .... »

ـ « لم يكن سائق تاكسى ... هذا واضح .. إنه من رجالى الذين يقومون بدوريات منتظمة حول المتحف طيلة الليل .. »

ساد صمت طويل ثم أطرقت الفتاة للأرض وقالت بصوت مبحوح :

ـ « سأحكى لك كل شىء .. »

* * *

لما انتهت من قصتها الطويلة ظل المقدم ينظر لى فى ثبات كأنه يراقب تعبيرات وجهى .. يريد معرفة ما يدور بذهنى ، فلما انتهت قال لها :

ـ « لم توضحى بعد ماذا رأيت فى الغرفة بالضبط ؟.. »

ـ « كان شيئًا مريعًا .. شيئًا عملاقًا لكن ليس له شكل ثابت .. أحيانًا كان يبدو كـ (راسم) لكنه ليس هو فى الوقت ذاته .. لا أدرى هل تفهم هذه النقطة ؟.. »

ـ « لا .. »

ـ « إذن لن أستطيع تقريبها أكثر من ذلك :. »

عاد يسألها وهو يشعل لفافة تبغ جديدة :

ـ « لماذا لم تحكى هذا لأحد ؟.. لماذا لم تحكيه لنا ؟ »

قالت وهى تنكش شعرها :

ـ « من يصدق هذا الكلام ؟.. سوف يقولون إننى مجنونة لا أكثر .. هذه أشياء لا تُقال .. الفارق بين المجنون والعاقل هو أن الأول يصر على أن يخبر الناس بأفكاره العجيبة ، بينما الثانى يصمت .. »

كلمة ذكية فعلاً.. لا أنكر أنها فتاة ذكية قوية الأعصاب ..

هنا قررت أن أتدخل وسألتها :

ـ « بصراحة .. هل هذا أول لقاء ليلى لك مع (راسم) فى المتحف ؟ »

نظرت لى فى حدة ، وقالت من أنفها :

ـ « ماذا تحسبنى ؟.. بالطبع هو أول لقاء وكانت له ظروف خاصة جدًا .. فيما عدا هذا التقينا كثيرًا جدًا فى أماكن عامة . مطاعم .. كافتيريات . دور سينما .. مركب نيلى .. »

نظرت للمقدم وقلت بلهجة انتصار :

ـ « زوجته تصر على أنه يخرج ليلاً ويأخذ مفاتيح المتحف من الكونسول .. اعتقدتُ أنه يقابل السكرتيرة لكن الأخيرة تنكر هذا وأنا أعرف أنها صادقة .. بعد كل حادث يتصلون فلا يظفرون به إلا بعد فترة طويلة .. الدائرة التى تخدع مراقب الشاشات .. من

يستطيع وضعها دون أن يثير الشكوك سوى صاحب المتحف نفسه ؟ »

قال لى المقدم :

ـ « ماذا تريد قوله ؟ »

ـ « أريد القول إن (راسم) هو ما نبحث عنه .. لم يكن الطوطم الذى حرقناه هو المسئول عن تلك الوفيات .. (راسم) هو المسئول .. بعبارة أخرى : (راسم) هو طوطم القبيلة !!! »

- 2 -

فى السيارة سيارته ونحن عائدان ، كان المقدم عصبيًا جدًا .. للمرة الأولى أراه غاضبًا وقد فقد هدوءه الأسطورى .. كان يضرب (التابلوه) بقبضته مرددًا :

- « أنت تريد أن تثير جنونى ... قلنا إن هذا الطوطم حيوان أو جماد أو نبات .. ما معنى أن يصير رجلاً ؟.. لقد بدأت هذه القصة تضغط على أعصابى فعلاً.. انتم مجموعة من المجانين .. »

قلت له وأنا أحاول أن أرتب أفكارى بدورى :

- « فكر معى .. حديثى مع الزوجة أضاء لى الكثير من الدهاليز المظلمة .. لقد عاش (راسم) حياة عادية بسيطة مع أمه الهندية التى هى فرد مهم جدًا عند قبيلة (أوجيبوا) .. لما ماتت فوجئ بأن هناك ميراثًا ثقيلاً على عاتقه .. هناك أفراد من القبيلة يأتون له كل يوم مؤدين طقوسًا أقرب للعبادة .. يطالبونه بما لا يقدر عليه. هكذا اكتشف فجأة أنه لا يستطيع البقاء يومًا آخر فى الولايات المتحدة وعاد مع زوجته إلى مصر التى لم يرها قط ..

« هنا نلاحظ أنه أحضر معه طوطم القبيلة والرغبة فى أن يبنى متحفًا.. أراهن على أنه لا يعرف السبب .. ثمة حافز قوى فى دمه دفعه لذلك .

« لقد أبيدت القبيلة أو كادت .. لم يعد الطوطم قابلاً لأن يبقى ذلك العمود الخشبى الذى يرمز للدب والكركى والوعل والبطة و... و ... لقد قرر سحرة القبيلة أن يتجسد هذا فى شخص .. كانوا يعرفون أن الطوطم يحوى حياة خاصة مرعبة ، وهذه الحياة كانت تتحرر فى أوقات معينة أو حسب طقوس معينة .. لقد دافع عن القبيلة عدة مرات حسب أساطيرهم ، لكن الوقت قد حان كى ينقلوا هذه القوة المرعبة التى ترمز لقبيلتهم إلى شخص .. هذا الشخص كان رجلاً ، ثم ابنته التى تدعى (أماليا) ، ثم جاء من نسلها ذكر يدعى (راسم).. هذا الرجل يمثل الحيوانات التى جاءت منها القبيلة .. يمثل الأب والأصل وسوف يبقى كذلك إلى أن ينجب .. هذه خبرة أنثروبولوجية فريدة ، فللمرة الأولى على قدر علمى يلعب إنسان حى دور الطوطم .. طوطم حى !.. هذا شىء يفوق الخيال ...

« (راسم) حاول الفرار من قدره ، لكنه لم يستطع الفرار من نفسه ، ونفسه جاءت معه إلى مصر .. فى أيام بعينها كانت تلك القوة المرعبة تتحرر معلنة عن نفسها وبرغم إرادته .. أعتقد أن الهجوم كان عشوائيًا فى كل مرة .. حارس .. لص .. عاشقان ..

« ثم جاء الخطر الحقيقى من عجوز أصلع مُصرّ على حرق الطوطم .. أنا .. لقد اقتربت من الحقيقة جدًا ، وكان على ذلك

المسخ أن يقتلنى وللمرة الأولى بعيدًا عن المتحف .. لاحظ أن (راسم) يعرف عنوان بيتى جيدًا ، وأعتقد أننى نجوت بمعجزة ما .. لكن (راسم) لا يسيطر على ذلك الكيان المروع ، ولا يعرف متى يهجم ومتى يتراجع .. لهذا لم يهاجمنى ثانية. هوجم (عاصم) الذى اكتشف أن هناك من عبث فى الشاشات وأخبرنى بهذا ...

« من عبث فى الشاشات ؟.. (راسم) طبعًا .. وضع بمساعدة مختص دائرة لا تعمل إلا فى الليل ، ومهمتها أن تخفى دخوله إلى المتحف ليلاً وتحوله .. كان يدخل ويبحث عن ضحية فى تلك الليالى لأن الظمأ إلى الدم يثير جنونه ، وأعتقد أنه كان سيفتك بالحارس الليلى لو لم يلق اللص فى مرة والعاشقين فى مرة أخرى ..

« لابد أنه كان يستعد للفتك بالسكرتيرة فى تلك الليلة لولا أن ذكاءها جعلها تفر هاربة .. »

كان يصغى لى بمزيج من التعب والملل والدهشة والسخرية ..

فى النهاية قال لى :

ـ « قصة ممتازة .. لكنها لا تصلح للقبض على برغوث لو كنت تفهم هذا .. سوف يكون على أن أشرح فى الأوراق كيف أن قبيلتك هذه قد قررت أن يصير طوطمها إنسانًا !! »

سألته فى عصبية :

ـ « لكن هل تصدق ما أقول ؟ »

ـ « بالطبع لا .. »

ـ « تعتقد أننى مجنون وأحمق ومضلل ؟ »

ـ « طبعًا .. »

ـ « هذا ما توقعته وهو ليس جديدًا .. منذ قابلت أول قصة خوارقية فى حياتى وأنا متهم بالأشياء ذاتها وقد سئمت الدفاع عن نفسى .. فليعتقد من يريد ما يريد ... "

راح يفكر بعض الوقت بينما الشوارع تتوالى أمامنا ثم قال :

ـ « معنى كلامك أن الخطر سيبقى داهمًا ما لم نتخلص من هذا الرجل .. »

قلت فى بساطة :

ـ « أو ينتحر .. أعتقد أنه يعيش حالة جامحة من العذاب .. هذه هى عقدة المذءوب الشهيرة.. إنه مدهوش من كل هذا الشر فى داخله ، ولا يستطيع مقاومته .. فى لحظة بعينها يقرر تدمير وعاء الشر هذا .. »

ـ « هل كان نفس الشىء سيحدث لو بقى فى الولايات المتحدة ؟ »

ـ « يصعب قول هذا .. لم نسمع عن حوادث مماثلة معه أو مع أمه .. أعتقد أن محاولته الفرار جعلت هذا الشئ يثور ويعلن عن نفسه .. »

كنا الآن عند البناية التى أسكن فيها ، فتوقف كى أهبط وقال لى :

ـ « عامة لا أعتقد أننى قادر على مساعدتك فى المرحلة القادمة .. تصرف على مسئوليتك الخاصة .. »

قلت وأنا أغلق الباب :

ـ « من قال إننى سأتصرف أصلاً ؟.. ربما حاولت أن أبتعد عن كل شىء .. لا أدرى .. لكن توقع مكالمة منى .. »

وفارقته ..

بالطبع لم أكن أنوى أن أظل بعيدًا .. هذا الشىء هاجم دارى مرة ولا يمنعه شىء من أن يفعلها ثانية .. هذه المرة سأكون فى الفراش نائمًا غالبًا .. ولسوف يجد الوقت الكافى ليمرح ..

عندها سوف يغسلون الجدران ليتخلصوا مما تبقى من رأسى ..

العائد

- 1 -

رد (راسم أبو سيف) على مكالمتى بعد عدة محاولات ..

- « هالو ؟ »

- « أنا رفعت يا مستر (راسم) .. هل أنت بخير ؟.. سمعت أن (ليلى) السكرتيرة تركت المتحف .. »

- « هذا لا شىء .. أنت تعرف أن تفاصيل كثيرة تشغلنى فلا وقت لدى للقلق على كل شخص رحل .. فقط هى لم تتقاض مستحقاتها الأخيرة .. »

- « لابد أن غيابها أربك الأمور .. »

- « صحيح .. لكنك تعرف كيف نعمل فى الولايات المتحدة .. لا أحد لا يمكن الاستغناء عنه .. »

بعد قليل قلت له بلهجة عارضة :

- « كنت راغبًا فى أن تسمح لى بالسهر فى المتحف عدة ليال .. »

- « هذا طلب غريب .. »

- « أريد أن أقضى الليل وحدى أمام الشاشات .. أراهن على أنه من الممكن أن نجد شيئًا .. مطلب غريب هو ، لكنه ممكن التحقيق . أليس كذلك ؟.. عرفت أن الحراس الليلين رحلوا لهذا يمكن أن تعتبرنى واحدًا .. »

- « هناك خطر داهم عليك .. تذكر (عاصم).. »

- « أعرف .. لكنى كذلك أرغب فى أن أجرب .. »

بعد تفكير طال ، سمح لى بأن أقضى الليلة كما أريد.. فقط على أن أمر على مكتبه قبل ساعات غلق المتحف ... سوف يعطينى المفاتيح بالطبع ...

هكذا تم الاتفاق ..

* * *

مرحبًا بكم يا سادة فى متحف (راسم للدراسات الإنسانية)..

أخيرًا صرت وحدى فى المتحف بعد ما رحل الجميع ...

أول ما قمت به هو أننى اتجهت للمخزن فحملت السلم المعدنى وهو خفيف لحسن الحظ واتجهت نحو كل كاميرا مسلطة على قاعة العرض .. ببنسة صغيرة قطعت السلك الدخيل الذى يتصل بكل واحدة منها ..

عدت لغرفة المراقبة ماشيًا وسط الآثار التى ترمقنى فى جشع .. مومياء المايا .. الأسد الأشورى .. السجادة البريطانية .. كلها فى ضوء الصالة الخافتة تبدو كأنها تنتظر الوثب على لتمزقنى ..

هناك تلك المجموعة من الصناديق الخشبية التى وردت منذ أسبوع ولم يفرغها أحد .. برغم أنها تبدو مثيرة للقلق فإن وجودها يريحنى بشكل خاص ...

أخيرًا أنا فى غرفة المراقبة أمام الشاشات التى صارت صادقة فجأة ..

أخرجت الشطائر التى أعددتها وبدأت ألتهم العشاء ، ثم صببت لنفسى بعض الشاى من ترموس صغير.. شاى مركز أسود لابد منه لو أردت ألا يقتلنى الملل فأنام ..

ألوك الطعام ببطء ...

أنا هنا وحدى فى المتحف كله .. إغراء ما بعده إغراء للمسخ كى يهاجمنى .. لو تخلى عن هذه الفرصة فلن يهاجمنى أبدًا ... لو تركنى فهو مسخ كسول رخو لا يوثق فيه ..

أنا هنا يا بنى فتعال .. أرجوك ألا تضيع وقتى ...

لن أطيق ليلة أخرى هنا ..

مددت يدى إلى المذياع لأسمع أى شىء .. ثم توقفت .. لا أريد أن أنشغل أو أفقد تركيزى .. يسهل أن أتابع هذه الأغنية أو تلك النشرة لأجد أن هذا الشىء يقف خلفى ..

رفعت عينى للشاشة التى تراقب البوابة ..

نعم ..

لا شك فى هذا .. مقبض الباب ينفتح ..

الباب الحديدى العملاق يتحرك ..

ضغطت على زر جهاز التسجيل .. إن مسجل الفيديو اختراع حديث نسبيًا ونتائجه مبهرة ..

فى الإضاءة الخافتة وبالأبيض والأسود ومع تموجات الشاشة أرى (راسم) يدخل ..

ينظر نحو الكاميرا فأجفلت .. كأنه ينظر لى فى عينى مباشرة ..

لكنه لا يعرف أن الأسلاك انتزعت وأننى أراه .. أنا متأكد من أنه لا يعرف هذا ..

يمشى خارجًا من مجال الكاميرا فأهرع إلى الكاميرا الأخرى .. إنه فى الممر حيث تبدأ المعروضات .. السجادة البريطانية ... مومياء المايا ...

يخرج من المجال فأهرع إلى شاشة أخرى ..

أين هو ؟

هل لم أنتزع هذا السلك ؟.. هل هذه الصورة حقيقية أم زائفة ؟..
هو ليس هنا فعلاً.. اختفى بين مجال اثنتين من الكاميرات ولا أعرف أين هو .. يذكرنى هذا بالمفصل كما يصفه الاستراتيجيون .. عندما تنتهى مسئولية جيش وتبدأ مسئولية جيش آخر ، وهى نقطة ضعف دائمة .. عندما حدثت الثغرة فى حرب عام 1937 كان سببها أن (شارون) وجد المفصل بين جيشنا الثانى وجيشنا الثالث ، وذلك بفضل معونة طائرات التجسس الأمريكية طبعًا ..

هل أخرج لرؤية ما يحدث رأى العين دون ألاعيب إلكترونية ؟

هذا خطر... من الأفضل أن أستمر حيث أنا ..

أين أنت ؟

هل هذا الذى يبلل ثيابى هو عرقى حقًا ؟

- 2 -

فجأة حانت منى نظرة إلى الشاشة الرابعة ، فرأيته ..

متى عبر إلى هناك ومتى ؟

أما ما صار إليه فهو مشهد لا يصدق ..

للمرة الأولى أدرك ضخامة وبشاعة ما نحن بصدده ، وأدرك لماذا تحولت شقتى إلى منطقة سقوط قنبلة نووية عندما دخلها ..

إنه يقف فى الظلام فلا أتبين ملامحه بوضوح ، لكنه ضخم جدًا يوشك على أن يضرب السقف برأسه .. رأسه ؟.. لا أميز شكلاً لرأسه فهو يتغير طيلة الوقت كأنه دخان .. للحظات يمكن أن أقول إنه يشبه رأس دب .. لا .. بل ذئب .. رأس ذئب .. بل رأس طائر طويل المنقار .. لا .. هو وعل .. بل رأس بشرى ..

إنه يقف ساكنًا ولا يفعل أى شىء .. فقط هو يقف حيث كان الطوطم القديم ..

وذراعاه الطويلتان ..

بهاتين الذراعين هشم عامود ذلك اللص الفقرى ، وانتزع قلب (عاصم) ، وهشم كل شىء فى شقتى ..

هو ينتظر الآن على بعد خطوات ...

كابوس مقيم يعيد لك تلك الذكريات المبهمة عن وحوش لها جسم إنسان ورأس حيوان .. المينوتور .. أنوبيس .. المدّعوبين .. سُبُك .. باستت ..

هل رأى الإنسان القديم مخلوقات كهذه ؟.. أم هى محاولته للتعبير عن الخوف البرى الأولى فى صورة مجسدة ؟

حان الوقت ..

أنا الآن أعرف جيدًا مكانه ..

تحركت نحو الباب بقدمين من عجين ، وخرجت إلى صالة العرض المظلمة ..

أين هو ؟.. لن أفعل هذا كله لأجده ينقض على من الخلف ؟

لكنه كان يقف هناك ... فى موضع الطوطم الخالى ...

لنأخذ الحذر .. برغم ضخامته أعتقد أنه ينقض كالبرق.. ربما أجد رأسى على الأرض قبل أن أفهم ..

كان واقفًا فى الظلام يخور كثور ، وبالفعل كان رأسه أقرب الآن إلى ثور من أى وقت مضى .. رمز ووالد قبيلة (أوجيبوا) .. هناك فى جزيرة السلحفاة كان يتحرر أحيانًا فى أعياد خاصة ويقف أمام الهنود الحمر ليذكرهم بأنهم ينتمون له .. ربما كان يخرج من الطوطم الخشبى أو من ساحر القبيلة .. لن نعرف أبدًا .. فقط نعرف فى هذه اللحظة أنه خرج من ...

قلت بصوت عال مرتجف :

- « (راسم) .. لقد انتهى الأمر ... لقد رأيت التحول وقمت بتصويره وتسجيله .. لن تستطيع أن تزعم العكس .. عليك أن تقاوم وأن تتحرر من هذه اللعنة .. أنت مريض كمرضى الفصام .. مريض كمدمنى المخدرات .. تحتاج إلى عون خارجى ... »

لم يرد .. فاقتربت أكثر وواصلت الكلام :

- « لو أنك حاولت التحرر من هذا الشيطان ، لعدت لصورتك الأولى .. وعندها سوف تجد من يعالجك .. أنا مستعد للذهاب معك إلى الولايات المتحدة لنقابل كبار (الأوجيبوا) ونطلب منهم النصح .. صدقنى .. (راسم).. أنا صديق وعليك أن ... »

هنا وثب على !!

* * *

لا أستطيع أن أحكى ما حدث بدقة ..

فجأة كان واقفًا حيث هو وفى اللحظة التالية كان يطير فى الهواء متجهًا نحوى وهو يخور .. المسافة بيننا ذابت فى عُشر ثانية وأنا الذى كنت أحسبنى أقف على مسافة مأمونة ..

سقطت على الأرض على وجهى ، بينما دوى صوت المقدم (خيرى) يصيح :

- « أطلقوا النار! »

وانطلقت الطلقات من رجال الشرطة الذين خرجوا من مكمنهم على هذا الشىء العملاق المرعب .. .. لقد توارى الرجال طيلة الوقت فى ظلام المتحف بانتظار الأمر بإطلاق النار ، وكانت هناك بعض الصناديق الفارغة التى أتاحت لهم التوارى خلفها ..

المهم أنه ابتعد عنى ... لم أرفع رأسى خوفًا من طلقة طائشة لكنى سمعت الخوار والزئير والثغاء

رائحة البارود تسد أنفى ..

سمعت رجل شرطة يصرخ ، ففهمت أن ذلك الشىء ظفر به ..

رفعت رأسى فى حذر لأجد أن هذا الشىء يمشى فى الضوء الخافت والطلقات تتناثر حوله ، وهو لا يعبأ بها على الإطلاق .. فقط يزداد غضبًا .. وكان يمسك برجل شرطة بيد واحدة على ارتفاع متر من الأرض ، بينما هو يمزق بأسنانه رجلاً آخر ..

سوف يقتلنا جميعًا .. لا شك فى هذا ..

صاح المقدم (خيرى) وهو يعيد حشو مسدسه :

- « (جابر)... هيا ! »

نظر له المجند فى دهشة .. لو فعلها الآن لقتل هؤلاء الذين يمسك بهم المسخ ، لكن المقدم كرر الأمر فى عصبية :

- « أطلق !! »

ثم صرخ وهو ينبطح على الأرض :

- « انبطحوا ! »

ثبت المدعو (جابر) مدفع الآر بى جى RPG على كتفه ، وركع على ركبته اليسرى وأحكم التصويب ..

ضغط الزناد فانطلق الصاروخ المخصص لتدمير الدبابات نحو هدفه ، وسرعان ما دوى الانفجار المروع .. هذه الأسلحة لا تصلح للإطلاق فى صالة متحف ومن حسن الحظ أن السقف لم ينهر فوق رءوسنا ..

تناثر اللهب والشرر والدخان والأشلاء فى كل مكان .. وحدثت فجوة فى الجدار بينما لم نعد نرى هذا الشىء ....

وعندما نهضنا جميعًا وقد أصبنا بصمم وقتى ، كان موضع الوحش قد تحول إلى بقعة سوداء تتصاعد منها النيران .. وكانت سحابة دخان كثيفة تملأ المكان ..

كنت أنا صاحب فكرة هذا المدفع ، لأننى عرفت أن الطلقات لن تحدث أى فارق .. لابد أن الجنود الزرق أطلقوا مئات الطلقات على هذا الشىء وهو يهاجمهم فى (نورث داكوتا) ..

كان المكان قد تحول إلى ساحة قتال حقيقية .. نحن نعد خسائرنا ونبحث عن بقايا هذا الشىء .. كانت هناك أشلاء غير بشرية لكننا لا نعرف من أى جزء من المسخ طارت ...

قال المقدم وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « طلقة بازوكا من مسافة قريبة كهذه .. لابد أنه تبخر ... كانت فكرتك موفقة برغم أننى أعتبرتها جنونًا .. »

قلت له وأنا أنفض ثيابى :

ـ « الأهم أنكم رأيتم ما حدث وسجلناه .. »

ـ « لم أر التفاصيل .. أنت رأيت كل شىء على الشاشات ، لكننا كنا مختبئين فلم نبرز إلا عندما رأينا هذا المسخ وأنت تكلمه .. »

الطوطم الحى ..

لقد انتهى ...

لا شك فى هذا ...

* * *

فقط عندما رأى الرجال هذا الشخص يخرج من بين الدخان وهو يرفع يديه ، وعندما صاح صائح منهم :

ـ « توقف مكانك ! »

هنا فقط شعرت بأن الأمر لم ينته ..

كان الرجال متوترين لذا صوبوا أسلحتهم نحو هذا الخارج من الظلام والدخان ، وكان (خيرى) ينهى مكالمته عبر جهاز اللاسلكى مع رؤسائه عندما رأى الرجل فتصلب وهتف فى الرجال :

ـ « لا تطلقوا الرصاص ! »

كان (راسم) يقف أمامنا رافعًا ذراعيه شاحب الوجه يرتجف .. لكنه (راسم).. لا شك فى هذا ..

أطلق (خيرى) سبة لم أعتدها منه ، وهتف :

ـ « إذن من الذى ؟... »

أما أنا فكنت فى حالة ذهول .. هذا منطقى .. كنت أراقب (راسم) على الشاشة ثم اختفى فى بقعة ما بين شاشتين .. من قال إننى رأيته يتحول ؟.. لقد أقنعت نفسى بهذا ..

نظر لنا طويلاً ولم يتكلم ..

ثم فجأة سقط على الأرض فاقدًا الوعى ...

فى هذه اللحظة كان الرجال يسلطون الكشافات على موقع المذبحة التى دارت منذ قليل ، وكان أول ما وجدوه هو فتحة فى الأرضية .. نعم .. فتحة خفية فى الأرضية خلف الموضع الذى كان ذلك الطوطم الخشبى يقف فيه ...

أما الشىء الثانى الذى وجدوه فهو رأس ...

رأس بقيت غالبًا من ذلك المسخ بعد الانفجار ، لكنها لم تكن رأسًا حيوانية .. لقد عادت لطبيعتها كما يحدث مع المذءوبين بعد ما تستقر الرصاصة الفضية فى قلوبهم ..

وضعوها فى حذر واشمئزاز على الواجهة التى يعرض فيها الأسد الأشورى .. ثم صوبوا الكشافات عليها ...

برغم الظلال وبرغم التشوه وبرغم طبقة السواد التى اكتست بها ، فقد عرفتها ..

كان هذا رأس (فيكتوريا أبو سيف) ...

خـــاتمة

انتهت قصة الطوطم .

أنت تعرف ولعى بالنهايات المفتوحة والأسئلة التى لا إجابة عنها ، لكنى أعتقد أننى لو نفذت هذه السياسة لمزقتنى إربًا .. من حسن الحظ أننى عرفت كل شىء من (راسم) بعد هذا ..

الطوطم صار إنسانًا بالفعل ، لكنه لم يكن (راسم) .. كان (فكتوريا) زوجته ..

ما حكته لى الزوجة كان صحيحًا ، لكنها لم تكمل القصة .. وباقى القصة يقول إن الطوطم الحى يجب أن يكون امرأة من ذرية زعيم القبيلة ، فإن لم توجد فأقرب امرأة للرجل الذى جاء من ذرية الزعيم ..

لهذا كانت (أماليا) هى الطوطم فى حياتها ، فلما ماتت لم يعد ممكنًا أن تنتقل الطوطمية لابنها بل لزوجته أو ابنته .. لا ابنة له ، لذا انتقلت للزوجة ، وهو حل عجيب لأن المرأة لا تحمل قطرة دم هندية فى عروقها ..

لابد أن الزوجة مرت بطقوس سحرية معينة لا تذكر عنها أى شىء ، لكن هذه الطقوس نقلت الطوطمية لها ... لقد صارت تحوى فى داخلها الدب والكركى والثور والبطة والوعل ..

لم تعرف الزوجة فى مصر ما جرى لها .. فقط كانت تعرف أنها تتغير وأن قوى غير مفهومة تسيطر عليها .. لهذا أفرطت فى الشراب وبدأت تنهار ... وإن احتفظت بالشك نحو زوجها ..

طلبتِ الطلاق.. لكن الطلاق يعقّد الأمور لأنه لا يمكن للعنة أن تفارقها إلا لو تزوج (راسم) امرأة أخرى ، عندها تموت (فكتوريا) .. لو أنجبت له (فكتوريا) أنثى تصير هى الطوطم الجديد ...

هل كان (راسم) يعرف ؟.. بالطبع .. لكنه كان عاجزًا عن عمل شىء ، دعك من أنه كان يتصرف أحيانًا بلا إرادة ولا وعى .. يفعل أشياء لا يدرى لماذا ولا متى فعلها .. بالطبع لم يكن راغبًا لحظة فى هذا الدور الذى يلعبه ، لكنه كان مسيرًا مثل زوجته ..

(راسم) ركب تلك الدوائر الخادعة ، كما أعد لها ممرًا سريًا لتدخل المتحف متى شاءت .. وكانت الفتحة خلف ذلك الطوطم . لقد وفر لها كل شىء .. لم يجسر على مسح آثار الدقيق الذى وضعه رجال الشرطة ، لذا توقع أن أحدًا لن يجد ما يدل على الحقيقة فى تلك الآثار .. حتى حقيقة أن الدقيق كان يشير بوضوح إلى الممر السرى .. هذا شىء لم ننتبه له ..

قدرات الزوجة كانت تفوق الحدود أحيانًا .. مثلاً الطريقة التى اقتحمت بها شقتى من الشرفة .. هذا مشهد جدير بأن تراه ...

وماذا عن (راسم) وسط هذا كله ؟

إنه فى السجن الآن ... لقد تسبب إخفاؤه للحقائق فى موت أبرياء كثيرين آخرهم زوجة أمريكية لم تستحق الموت بصاروخ مضاد للدبابات بالتأكيد.. لهذا مزية مهمة هى أنه لن يتزوج ثانية ..

أعتقد أن لعنة (أوجيبوا) ستتوقف عند هذا الحد ، بعد ما تجاوز انتقامهم من الرجل الأبيض الحدود ليفتك بالرجل الأسمر وقمحى البشرة ..

* * *

هذه هى قصتى كاملة ..

الآن أنت تعرف ما أعرفه عن هذه القضية ..

حان الوقت كى نتكلم عن شخصيات روائية تُبعث فيها الحياة ، وعن عالم تتداخل فيه الحقيقة مع الخيال .. وعن ...

ولكن هذه قصة أخرى .

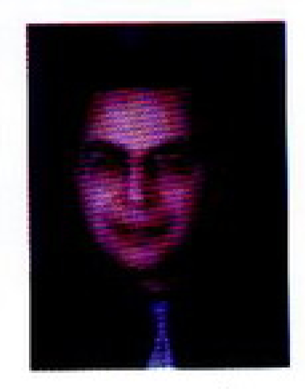
د. رفعت إسماعيل

القاهرة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفـاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة الطوطم

يجب أن تساعدنا يا دكتور رفعت ..
ثمة شيء يتحرك فى المتحف بعد أن يحل الظلام ، وهذا الشيء ينتزع الأطراف والأعناق ويثقب العيون ويثنى الأجساد إلى نصفين .. هذا الشيء لا تسجله عدسات الكاميرا ولم يره أحد وظل حيًا أو عاقلاً .
يجب أن تسدى لنا النصح يا دكتور رفعت .. أنت تفهم هذه الأمور ، وإن لم تفهمها فأنت تعرفها ، وإن لم تعرفها فأنت سمعت عنهـا .. على الأقل يمكنـك أن تلعـب دور (الرنجة الحمراء) ؛ فيطاردك هذا الشيء فى أرجاء الأرض ويتركنا لحالنا !

العدد القادم

أسطورة شبه مخيفة

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

